عبد السلام محمد هارون

المَيْسِرُ والأزلام

دراسة تاريخيـة اجتماعية أدبية
ودعوة إلى إصـلاح اجتماعي

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

[الطبعة الأولى]

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« يسألونك عن الخمر والمَيْسِر قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنّاس » . (البقرة ٢١٩)

« إنّما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رِجسٌ من عَمَل الشَّيطان فاجتنِبُوه » . (المائدة ٩٠)

« إنّما يريد الشَّيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوَةَ والبغضاء فى الخمر والميسر » . (المائدة ٩١)

هذه الآيات الكريمة التى تقرن الخمر بالميسر وتجمع بينهما فى شرورهما وآثامهما ، وخضوعهما للشيطان وقوى الإفساد ، هذه الآيات لا ريب أنها واجدة من أولى الأمر فينا آذانا صاغية ، و إصغاء واعيا لأمر الله وأحكام دينه .

ولقد بادر أولو الأمر الراشدون فاتجهوا وجهة صالحة فى سبيل سن العقوبات الرادعة لمدخنى « الحشيشة » والاتجار بها .

وليست الخمر والميسر بأقل فى أضرارهما المادية والخلقية والصحية والاجتماعية والسياسية من « الحشيشة » . فعلى موائد الشراب والقمار تضيع الأموال ، وتفسد الأخلاق ، وتُنهَك الأبدان ، وتتحلل الروابط الاجتماعية ، ويتسلل العدو إلينا فيما بين ذلك غانما رابحا .

وقد قرأنا فى أثناء ثورة القنال الأخيرة أن الأموال التى تتدفّق من المصريين إلى خزائن الدول الأجنبية ثمنا للخمور تزيد على خمسة ملايين من الجنيهات فى كل عام .

حقا إن الدولة أحسنت صنعا بأن حظرت لعب الميسر على موظفيها ، ولكن موظفيها ليسوا إلاّ طائفة قليلة فى هذا الشعب ، وإن الميسر يتخذ صورا شتى صغيرة فى مقاهى القرية والمدينة ، ويبتز أموال الفقراء الكادحين ، ويوقع العداوة والبغضاء إيقاعا يُترجَم فيما بعد بالقتل وسفك الدماء ، وارتكابِ كثير من جرائم السطو والسرقة والاغتصاب . فأَولَى بالدّولة أن تعمم تحريمه فتقطع بذلك دابر أجناس شتى من جرائم الأخلاق وجرائم النفوس .

هذه الرغبة الإجماعية لدعاة الإصلاح فى هذا البلد هى التى أوحت إلىَّ أن أكتب هذا البحث الذى يتناول كثيرا من قضايا الاجتماع والدين والتاريخ والأدب واللغة ، إلى قدر يسير من

تأويل القرآن الحكيم ، فقد رأيتُ — حفظك الله — حول هذا الميسر وتلك الأزلام ظلاماً متراكبا أردت تبديده ، ورأيت أنَّ لدَى كثيرٍ من الأدباء رغبة فى تجليتهما و إظهار أسرارهما ، فإن قليلاً من الباحثين هم الذين تعرضوا للكلام عليهما فى بسط وتفصيل .

ومن هؤلاء القلة :

١ — ابن قتيبة ، وكتابه أهم أثر تاريخى يعتمد عليه ، لقدم عهده وجلال شأنه ، وقد سمَّى كتابَه (الميسر والقداح[١]) . وعاشَ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبة ما بين سنتى ٢١٣ — ٢٧٦ .

وترجع قيمة هذا الأثر التاريخى إلى الطريقة العلمية التى نهجها ابن قتيبة ، وهو استقراء الآثار العربية الأدبية ، لاستخلاص هذا البحث النادر ، على قلة ما وصل إلى العلماء من تلك الآثار التى يذكر فيها الميسر . وفى ذلك يقول ابن قتيبة مخاطباً مَن كلَّفه تأليف الكتاب :

« وقد كلَّفْتَ رحمك الله شَطَطا ، وحاولتَ عسيراً ، لأن

---

(١) نشر هذا الكتاب بالقاهرة ١٣٤٢ ، وقام بتحقيقه الأستاذ الجليل السيد محب الدين الخطيب . ولم يطلع الآلوسى على كتاب ابن قتيبة ، كما صرح بذلك فى بلوغ الأرب (٣ : ٦٥) .

الميسر أمر من أمور الجاهلية قَطَعه الله بالإسلام ، فلم يبق عند الأعراب إلا النَّبْذُ منه اليسير ، وعند علمائنا إلا ما أدى إليه الشعرُ القديم ، من غير أن يجدوا فيه أخباراً تؤثر ، أو رواياتٍ تحفظ ، والشعر يضيق بالأوزان والقوافى عما يتّسع له الكلام المنثور . على أنى لم أجِدْ فى أشعارهم شيئاً فى جلالته عندهم وعظيم نفعه ، هو أقل منه ، إنما يَعرِض فى شعر المكثرين من ذكره البيتان والثلاثة ، وأكثرهم يَضرِب عنه صَفحا . وليس ذلك مذهبَهم فى وصف الإبل والخيل والحمير ، والنعام والظباء والقطا ، والفلوات والحشرات . ولم أجد فيهم أحداً ألهجَ بذكر القداح من ابن مُقبل ، ثم الطرماح بعده . ولو جمعت مافى شعر أحدهما من ذِكره لم تجده بعُشْر ما فيه من وصف حمار أو بعير[1] » .

---

(١) اقرن بهذا النص ما ذكره ابن سيده فى المخصص (١٣ : ٢٠) من قوله : « قال أبو عبيد : سألت الأعراب عن أسماء القداح ، فلم يعرفوا منها غير المنيح ، ولم يعرفوا كيف يفعلون فى الميسر » !!

وأضف إلى ذلك أيضاً ما قاله الأصمعى واهماً من تجزئة الجزور الى ثمانية وعشرين جزءا . وسيأتى فى الكلام على « الجزار » .

وكذا ما سيأتى من قول أبى عبيدة : « قد سألت عن الميسر الأعراب فقالوا : « لا علم لنا بهذا ، هذا شىء قطعه الإسلام فلسنا ندرى كيف كانوا ييسرون » .

ومن هذه كلها نفهم الصعوبة والغموض الذى كان مخيما على معرفة العلماء بحقيقة الميسر .

فمن هذا يتّضح مقدار الجهد الذى بذله ابن قتيبة ، وكشف به الدستور الذى كان يتبعه العرب فى الجاهلية فى لعب الميسر .

على أن ابن قتيبة كتب هذا البحث بلغة معاصريه ، وقارب منهجهم الذى لا يسوده النظام الكامل ، ويَشِيع فيه الاستطراد والحشو .

٢ — ابن سيده الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ كتب فصولا لغوية فى الميسر والأزلام فى المخصص (١٣ : ٢٠ — ٢٣) .

٣ — برهان الدين البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ كتب فى تفسيره المسمى (نظم الدرر ، فى تناسب الآى والسور[١]) فصلا كبيرا ممتعا . وقد أفرده المستشرق السويدى (لندبرج) : Cont, C, de Landederg الذى كان يسمى نفسه « عمر السويدى » ، وطبعه فى مجموعة (طرف عربية[٢]) فى ليدن

(١) لم يجزم البقاعى بتسمية كتابه هذا . وقد قرأت فى مقدمته هذا النص : « وسميته نظم الدرر ، فى تناسب الآى والسور . ويناسب أن يسمى فتح الرحمن ، فى تناسب أجزاء القرآن ، وأنسب الأسماء له ترجمان القرآن ومبدى مناسبات الفرقان » . وقد كتب السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس ، على الجزء الأول من نسخته : « كتاب المناسبات » . ونسخة الزبيدى هذه هى نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٨٥ تفسير .

(٢) منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٦٥٣ مجاميع ، وأخرى بالخزانة التيمورية برقم ٣٥ مجاميع . وتشتمل على هذه الرسالة ، وعلى رسالة « نشوة الارتياح » للمقريزى ، ورسالة « التنبيه على غلط الجاهل والنبيه » لابن كمال باشا ، و « ديوان أبى محجن الثقفى » .

١٣٠٣ وسماه (لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى) .

وقد رجعت إلى نسخة تفسير البقاعى فوجدت البقاعى يعتمد فى هذا الفصل فى أكثر ما يعتمد على ما كتبه أبو حاتم أحمد بن محمد بن حمدان الرازى فى (كتاب الزينة[١]) .

٤ — السيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى ، شارح القاموس المتوفى سنة ١٢٠٥ ، ألّف فى ذلك رسالة سماها « نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح » جعلها تعليقا على ما كتبه البقاعى فى تفسيره ، وقال فى مقدمتها :

« وبعد فهذه نبذة يسيرة صغيرة ضمنتها الفَسْر والإبانة عن مَضارب ألفاظ وقعت فى تفسير قوله تعالى : يسألونك عن الخمر والميسر .. إلى آخر الآيات ، للإمام الحافظ المحدث المفسر البرهان البقاعى فى كتابه المسمى بالمناسبات ... إذ لم أر أحدا من الأئمة بسط فيه من الكلام ، ولا كشف عن وجه مخدَّراته اللثام ، بل بيان المراد منه عزيز الوجود ، واستقصاء حقيقته كامر مفقود ،

---

(١) يقوم صديقنا الباحث الجليل الدكتور حسين الهمدانى المدرس بكلية دار العلوم بتحقيق هذا الكتاب الثمين على عدة مخطوطات ، منها نسخة مكتبة جده الشيخ محمد الهمدانى بمدينة « سورت » بالهند . وقد وجدت موضوع الميسر فيها يقع فى ما بين ص ٣٧١ — ٣٧٤ وأفدت منه .

وإنما هى نتف عبارات سيقت فى كتب اللغة والتفسير ، وشطف إشارات مصادمة بعضها مع بعض فى التعبير ، حتى قال أبو عبيدٍ مع سعة علمه فى الفن : لم أجد علماءنا يستقصون علم معرفته ويدعونه . وقال أبو عبيدة ، وناهيك به جلالة قدرٍ لها النبهاء عند المضيق يُضطرّون : قد سألت عن الميسر الأعراب فقالوا : لا علم لنا بهذا . هذا شىء قطعه الإسلام فلسنا ندرى كيف كانوا ييسرون » .

وقال فى نهايتها : « هذا ما تيسر إملاؤه على الارتجال والاستعجال فى مجلس واحد من نهار يوم الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة الحرام ختام سنة ١١٨٦ » .

وقد نشر المستشرق « عمر السويدى » هذه الرسالة أيضا فى مجموعة (طرف عربية) عن نسخة بخط الزبيدى محفوظة فى مكتبة برلين .

٥ — العلامة السيد محمود شكرى الآلوسى المتوفى سنة ١٣٤٢ ، كتب فصلا مسهبا فى الجزء الثالث من كتابه (بلوغ الأرب) .

وقد صنف الآلوسى فى ذلك أيضا كتابا سماه (المسفر ، عن الميسر) ، وهو مخطوط لم يتسنّ لى أن أطلع عليه . وقد ذكر

هذا الكتاب تلميذه الأستاذ الفاضل السيد بهجة الأثرى فى حواشيه على (بلوغ الأرب) .

وإنى لمحاول هنا أن أبسط البيان فى استيعاب وتفصيل ، وبأسلوب أحسبه منظماً ، راجعاً فى ذلك إلى شتى المصادر التى تعين فى هذا البحث الشاق الوعر ، وبالله التوفيق .

١

المَيْسِر

لفظ الميسر ومدلوله — لفظ القمار ومعناه — لفظ الأزلام ومعناه — زمان الميسر — الجزور — الجزار — أعشار امرئ القيس — عدد الأيسار — قداح الميسر — عدد القداح وأسماؤها — قداح الحظ — القـداح التى لا حظ لها — الخريطة — الحرضة — الرقيب — مجلس الميسر — الغنم والغرم — أولية الميسر — هل بقى الميسر فى الإسلام .

لفظ الميسر ومدلوله :

لا ريب أن عرب الجاهلية كانوا يطلقون لفظة الميسر غالباً على المقامرة بالأقداح لاقتسام الجزور بطريقة خاصة نذكرها فيما بعد ، وهو ما يعبر عنه أبو حيان فى تفسيره[1] بأنه « قمـار أهل الجاهلية » .

فالميسر على هذا مصدر ميمى ، كالمرجع من رجع ، والموعد من وعد .

ويطلقون الميسر أيضاً على الجزور نفســه ، فهو اسم موضع

(١) تفسير أبى حيان (٢ : ١٥٧) .

من اليَسْر ، بفتح الياء . واليسر : التجزئة ، ولذلك سموا الجازر ياسراً لأنه ييسر اللحم و يجزئه . و به فسّر قول لبيد [١] :

واغضُضْ عن الجارات وامْـ ـنحهنّ مَيسرَكَ السَّمينا

قال ابن قتيبة : « هذا الأصل فى الياسر ، ثم يقال للضار بين بالقداح المتقامرين على الجزور : ياسرون ، لأنهم أيضاً جازرون ، إذْ كانوا سبباً لذلك ، وكان الجزور إنما يقع بضربهم ، والجازر يفصل اللحم لهم بأمرهم . وكل من يأمر بشيء ففعل فهو الفاعل له و إن لم يتولّه بيده [٢] » . فالإطلاق الأول إطلاق مجازى ، والإطلاق الثانى هو الإطلاق الحقيقى .

وقد ذهب مقاتل إلى أن اشتقاق « الميسر » من اليُسر ، لأنه أخذ لمال الرجل بيسر وسهولة ، من غير كد ولا تعب [٣] .

وقال الواحدى : إنه من قولهم يسر لى هذا الشيء ييسر يسراً وميسراً ، إذا وجب [٤] .

وقال أبو حيان فى تفسيره : إن السهام التى يقتسم بها يقال

---

(١) نشوة الارتياح للسيد مرتضى الزبيدى ٤٤ .
(٢) الميسر والقداح ٣٥ .
(٣) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) .
(٤) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) .

لها أيضاً « ميسر » وذلك للمجاورة [١] . والوجه فيما ذكره أبو حيان أن يقال إن مجازها من أنها آلة للميسر .

على أن الإسلام فيما بعد أطلق « الميسر » على جميع ضُروب القمار .

١ — روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم وهاتين الكعبتين فإنهما من ميسر العجم [٢] » . فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعب « النرد » ضربا شبيهاً بميسر العرب فى اقتسام الجزور . والكعبة فى هذا الحديث هى الفص من فصوص النرد ، يقال له « كعب » و « كعبة » أيضاً .

٢ — وعن ابن سيرين ومجاهد وعطاء : « كل شىء فيه خطر — وهو ما يأخذه الغالب فى النضال والرهان ونحوهما — فهو من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوز [٣] » .

فالتابعون والفقهاء قد ألحقوا بميسر الجاهلية كل ما يمت إليه بسبب من مختلف ضروب القمار ، قاسوا هذا بذاك [٤] ، ولم

---

(١) تفسير أبى حيان (٢ : ١٥٤) .

(٢) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) .

(٣) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) .

(٤) فى الخزانة (٢ : ٢٤٧) نقلا عن الزجاج فى تفسيره : « إجماع العلماء أن القمار كله حرام ، وإنما ذكر الميسر من دونه — يعنى أنه ذكر فى الكتاب — وجعل كله حراما قياساً على الميسر ، والميسر إنما كان قماراً فى الجزر خاصة » .

يستثنوا من ذلك شيئاً إلا السبق فى الخف والحافر . قال الفخر الرازى : « أما السبق فى الخف والحافر فبالاتفاق ليس من الميسر ، وشرحه مذكور فى كتاب السبق والرمى من كتب الفقه » .

وأما الشطرنج والنرد ونحوهما فكراهتهما لما فيهما من شبهة القمار[1] . قال الفخر : « قال الشافعى : إذا خلا الشطرنج عن الرهان ، واللسان عن الطغيان ، والصلاة عن النسيان ، لم يكن حراما » . قال : « وهو خارج عن الميسر ، لأن الميسر ما يوجب دفع المال أو أخذ مال ، وهذا ليس كذلك فلا يكون قماراً ولا ميسراً » .

وقال مالك : الميسر ميسران : ميسر اللهو ، فمنه النرد والشطرنج والملاهى كلها . وميسر القمار وهو ما يتخاطر الناس عليه[2] .

وقال ابن قتيبة[3] بعد أن ذكر الميسر الذى حرمه الله فى الكتاب ، وهو ضرب القداح على أجزاء الجزور قماراً : « ثم يقال للنرد ميسر على التشبيه ، لأنه يضرب عليها بفصين كما

---

(١) انظر ما رواه المسعودى فى مروج الذهب (٢ : ٧) من مبالغة الهند فى القمار بالشطرنج والنرد .

(٢) تفسير أبى حيان (٢ : ١٥٧) .

(٣) الميسر والقداح ٣٦ .

يضرب على الجزور بالقداح ، ولأنهما قمار كما أن الميسر قمار ، ولا يقال للشطرنج ميسر ولا من الميسر ، لأنهما فارقت تلك الصفة وتلك الهيئة ، إنما هى رفق واحتيال » .

ويفهم من هـذا النص أحد أمرين : إما أن لعبة الشطرنج فى عصره لم تكن مجالا للمقامرة ، وإما أنه خفى عليه أن لاعبيها كانوا يقامرون عليها . ولـكن معرفته بأن النرد كان مجالا للمقامرة يرجح أن الشطرنج لم تتخذ فى عصره موضوعاً للمقامرة .

وكان القوم ينفرون من الشطرنج ولاعبيها نفورا شديدا . روى الراغب الأصفهانى[١] أن أهل المدينة كانوا إذا خطب إليهم من يلعب الشطرنج لم يزوجوه . وذلك لما كانوا ينظرون إليه من نقص دينه ، ولأنهم كانوا يزعمون أن الشطرنج « إحدى الضَّرَّتين » ، وذلك لِمَا يشغَل صاحبه شغلا عن أهله و بنيه .

لفظ القمار ومعناه :

والقمار لفظ أعم من الميسر ، إذ يطلق على جميع أنواع المراهنة . يقال : قامره مقامرة وقماراً ، إذا راهنه ؛ وقمره قمراً ، إذا غلبه فى ذلك . وفى حديث أبى هريرة[٢] : « من قال تعال

---

(١) محاضرات الراغب (١ : ٣٤٦) .
(٢) فتح البارى (١٠ : ٤٢٩) .

أقامرك فليتصدق » . و يقال تقمر الصياد الظباء والطير بالليل ، إذا صادها فى ضوء القمر فتقمر أبصارها فى ضوئه ، أى تعشى وتتحير فتصاد . والتقمر : الاختداع . فمرجع القمار إنما هو إلى الخداع . وكذلك يفعل لاعب القمار ، فإنه يحاول اختداع صاحبه لتكون له الغلبة عليه .

وقد يكون مرجعه إلى الزيادة والنقص . قال البقاعى فى تفسيره : « والقمار كل مراهنة على غرر محض ، فكأنه مأخوذ من القمر آيةِ اللَّيل ، لأنه يزيد مال القامر تارة و ينقصه أخرى ، كما يزيد القمر و ينقص » .

لفظ الأزلام ومعناه :

والأزلام جمع زلم بالتحريك و بضم ففتح . والزلم ، والسهم ، والقدح بالكسر مترادفة المعانى ، تدل كلها على قطعة من غصن مسواة مشذبة .

وأكثر ما يستعملون « الزلم » فى « الاستقسام » ، وهو ما سنفرد له قولا خاصا . وأكثر ما يستعملون « السهم » فى سهم القوس الذى يرمى به ، وأكثر ما يستعمل القدح فى قداح الميسر التى تجال لقسمة الجزور ، وكل من هذه الألفاظ الثلاثة ينوب عن الآخر فى الاستعمال .

زمان الميسر :

لم يكن الميسر عند العرب لهواً يلهون به ، أو لعبة يلعبونها ، إنما كان نظاما اجتماعياً دعتهم إليه ظروفهم المعيشية ، وساقتهم إليه طباعهم البدوية ، فالباعث الحقيقى عليه كان «الكرم» وكان التباهىَ بالكرم ، وهذا الأخير هو الذى أظهر الدين كراهته فيما بعد ، كرهه الدين وكره معه أيضاً ما كان يصحب هذا الصنيع من نزاع وجدال وخصومة فى سبيل الظفر بأوفى نصيب ، هذا إلى ما يقارنه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر والإنفاض .

وكان من بواعثه أيضاً إعانة الفقراء فيما بينهم ، إذ كان الفائز منهم بنصيب لا يتناول منه شيئاً ، بل يلقيه إلى المحتاجين والمعوزين من ذويه ، ليسد أرماقهم .

قال أبو حيان[1] : « وأيهم خرج له نصيب واسى به الفقراء ، ولا يأكل منه شيئاً ، ويفتخرون بذلك » . ثم قال : « وربما قامروا لأنفسهم » ، أى إن ذلك أمر نادر .

والحاجة والعوز — وهما المتطلبان للكرم والجود — إنما

---

(١) تفسير أبى حيان (٢ : ١٠٥) ، ومثله الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) . وفى الخزانة (٢ : ١٧٧) : « وكان الغالب يفرق ما أخذه على الفقراء » .

يشتدان فى وقت الشتاء عند العرب ، وذلك عند ما تجدب البلاد وتقشعر الأرض ، و يتعذر القوت على طالبه ، وحينما يَكلَب الزمان وتضن البلاد بخيراتها ، والنوق بألبانها .

وليس فى طوقك أن تتصور حال البؤس وشظف العيش الذى يتعرض له الأعراب فى باديتهم فى ذلك الزَّمان ، ومقـدار الحاجة الملحة التى كانت تنزل على الأرامل والأيتام فى تلك المجدبة والمسغبة .

فالوقت الطبيعى للميسر عند العرب هو فصل الشتاء ، وهم يختارون الليل فى ذلك الفصل ، لأن الليل وقتُ طروق الضيف ، وحينُ اشتداد البرد ، فيوقدون النار ليهتدى بها الضيف ، وليستطيعوا أن يزاولوا هذا العمل فى يسر .

وكان الرجل من العرب يخشى الصيفَ ، أن يحضر الصيفُ ولم يكن صنع لنفسه فى شتائه مفخرة تُذكر له حين تذكر المفاخر ، فهو يخشى أن يُعيَّر فى الصيف بنكوصه عن المشاركة فى هـذا الجهد الاجتماعى ، و إمساك يده عن مساعدة القبيلة .

إذا يَسَروا لم يورث اليَسْرُ بينهم
فَواحِشَ يُنعَى ذكرُها بالمصايف[1]

---

(١) المرقش فى المفضلية ٥٠ طبع المعارف .

وذلك أنهم يخصبون فى الصيف فيتذاكرون ما كان من الناس فى الشتاء ، فيُعير كلٌّ امرئ بسوء فعله[١] .

وقد سجل الشعر العربى أن الميسر يكون فى الشتاء ، فقال الأعشى :

المطعمو الضيف إذا ما شتوا والجاعلو القوت على الياسرِ

وقال متمم بن نويرة :

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه إذا القِشْع من برد الشتاء تقعقعا

البرم : الذى لا يدخل معهم فى القداح ، ويسمونه أيضاً « المعزال »[٢] . وإذا كان الرجل كذلك لم يدخل اللحم بيته إلا بأن يهديه نساء الحى إلى امرأته .

وقال سنان بن أبى حارثة المرى[٣] :

وقد يَسَرتُ إذا ما الشول روّحها بردُ العشىّ بشَفَّانٍ وصُرَّادِ

الشفان والصراد : ريح باردة .

وقال طرفة :

وهُمُ أيسارُ لقمان إذا أغلت الشَّتوةُ أبداء الجزرْ

.. الأبداء : جمع بدء وهو النصيب من الجزور .

(١) الميسر والقداح ١٠٧ .
(٢) اللسان (عزل) .
(٣) المفضليات ٣٥٩ الطبعة الثانية .

وقال عنترة :

ربذٍ يداه بالقِداح إذا شتا　　هَتّاكِ غايات التِّجار ملوَّم

وقال لبيد :

وبيض على النيران فى كل شَتوة　　سراةَ العشاء يزجرون المسابلا

قال ابن قتيبة(١) : يريد أنهم يضربون بالقداح فيصيحون بها ويزجرونها إذا ضربوا ، كما يفعل المقامرون بالنرد .

الجزور :

١ — إذا كان للميسر موضوع كما يقولون ، فهو «الجزور» . والجزور يقع على الذكر والأنثى من الإبل ، ولكنهم أكثر ما ينحرون النوق(٢) .

٢ — وليست كل ناقة ولا كل بعير بصالح للميسر ، وإنما كانوا يتخيرون أسمنَها وأنفسها وأعزها عليهم ، فكأنما أُلهموا من وراء الغيب : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وفى ذلك قول لبيد :

وجزور أيسار دعوت لحتفها　　بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مُطفِلٍ　　بذلت لجيران الجميع لِحامها

---

(١) الميسر والقداح ٥١ .

(٢) اللسان (جزر ٢٠٤) .

يقول : رب جزور تصلح لتقامر الأيسار عليها دعوت ندمائى لنحرها بتلك المغالق المتشابهة ، وهى سهام الميسر يشبه بعضها بعضاً . وأراد بها هنا سهام القرعة يقرع بها بين إبله : أيها ينحر لندمائه . فهو يدعو بتلك السهام لنحر ناقة عاقر أو أخرى مطفل . وإنما ذكر « العاقر » لأنها أسمن وأحمل للشحم ، و « المطفل » لنفاستها عليهم وعزتها[1] .

٣ — وكانوا إذا أرادوا أن ييسروا ابتاعوا ناقة بثمن مسمى يضمنونه لصاحبها ، ولم يدفعوا ذلك الثمن حتى يضربوا بالقداح عليها فيعلموا على من يجب الثمن[2] .

وسيأتى فيما بعد أن الثمن يدفعه من خابت سهامهم ، متضامنين فى ذلك بحسب أنصبتهم لو فازوا .

٤ — وكانوا يفخرون بالمغالاة فى ثمن الجزور . وفى ذلك يقول سلامة بن جندل السعدى[3] :

قد يَسعدُ الجار والضَّيفُ الغريب بنا
والسائلون ونُغلِي مَيسِرَ النِّيبِ

---

(١) بلوغ الأرب (٣ : ٥٤ — ٥٥) .
(٢) الميسر والقداح ١١٣ .
(٣) المفضليات ١٢٠ الطبعة الثانية .

ويقول شبيب بن البرصاء[١] :

وإنى لأغلى اللحم نيئاً وإننى   لمن يهين اللحم وهو نضيجُ

قالوا فى تفسيره : أى أشترى خياره غالياً للضرب بالقداح فى الجدب .

٥ — وكانوا قبل أن يضربوا بالقداح يجعلون بينهم عدلا يأخذ من كل امرئ منهم رهناً بما يلزمه من نصيب قدحه إن خاب ، مقدراً كل الاحتمالات التى يتعرض لها الغارمون ، ويسمون هذا العمل « التأريب » ، وهو التشديد فى الخطر[٢] .

٦ — وأحياناً يتغالى الياسرون فيجعلون مكان أعشار الناقة أعداداً من الإبل ، كأن يجعلوا موضوع الميسر عشراً من النوق ، لا ناقة واحدة يقسمونها عشرة أجزاء . وكذلك إذا أرادوا أن يضربوا على أكثر من هذا العدد جعلوا مكان العُشر من أعشار الجزور بعيرين ، ومكان عُشرين أربعة ، ومكان ثلاثة الأعشار ستة ، فإن زادوا على ذلك فعلى هذا السبيل[٣] .

٧ — بل أبدى بعضهم — وهو علقمة بن عبدة[٤] —

---

(١) المفضليات ١٧٢ الطبعة الثانية .
(٢) الميسر والقداح ١٤٦ — ١٤٧ .
(٣) الميسر والقداح ١٢٣ ، ١٢٧ .
(٤) المفضليات ٤٠٣ الطبعة الثانية .

استعداده ، لأن ييسر بالخيل فى قوله :

لو يَيسِرون بخيلٍ قد يسَرتُ بها وكلُّ ما يسَرَ الأقوامُ مغرومُ

٨ — وهناك ميسر آخر غريب ، ذكره طائفة من العلماء ، وهو أن يكون موضوع الميسر إنساناً . وقد أنشدوا فى ذلك قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أقول لهم بالشعب إذ يَيسِرُوننى ألم تعلموا أنّى ابنُ فارسِ زَهدمِ

أى ألم تعلموا أنى ابنُ صاحب الفرس المسمى « زهدم » .

قال صاحب اللسان[1] : « كان قد وقع عليه سباء فضرب عليه بالسهام . وقوله : ييسروننى : هو من الميسر ، أى يجزئوننى ويقتسموننى » .

وهذا تفسير ساذج ، ومن العسير أن يتصوره العقلُ إلا أن يريدوا اقتسام رقه وعبوديته فيما بينهم ، كما يكون العبد ملكا لعدة أشخاص يملك كل منهم شِقصاً منه .

ونجد ابن سيده[2] يفسر البيت تفسيراً أشنع من تفسير صاحب اللسان إذ يقول : « وييسروننى من الميسر ، أى يجتزروننى ويقتسموننى » وهو لا ريب تفسير خاطئ .

(١) اللسان (يسر) .
(٢) المخصص (١٣ : ٢٠) .

وقد فسره ابن قتيبة[١] تفسيراً عاقلا بقوله : « فمن روى : ييسرونني ، أراد : يقتسمونني ويجعلونني أجزاء ، أحسبه أراد فداءه ، لأنهم إذا أخذوا فداءه فقسموه فكأنهم اقتسموا نفسه . ومن رواه يأسرونني جعله من الأسر » .

الجزار :

ويسمونه « القُدار » ، على وزن همام . ولذلك القدار خبرة خاصة بتقسيم الجزور ، فهو يقسمها عشرة أقسام :

فإحدى الوركين جزء ، والورك الأخرى جزء[٢] ، والعجز جزء ، والكاهل جزء ، والزور — وهو ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين جزء ، والملحاء — وهو وسط الظهر بين الكاهل والعجز — جزء ، والكتفان جزء ، والذراعان جزء ، وإحدى الفخذين جزء ، والأخرى جزء .

ويبقى بعد ذلك « الطُفاطف » وهى أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع ، و « فقر الرقبة » ، فيقسم وتفرق على تلك الأجزاء بالسواء ، فإن بقى عظم أو نصفه بعد القسم فذلك الرَّيْم ، وكانوا

---

(١) فى الميسر والقداح ٣٤ .

(٢) الوركان هما فوق الفخذين كالكتفين فوق العضدين .

يجعلون ذلك الريم للجازر ، فإنْ بَخِلوا به ولم يجعلوه له كان ذلك مَسبَّة لمن لم يجعله .

وأما نصيب بائع الناقة فهو الأطراف والرأس غالباً .

وذهب الأصمعى فى ذلك مذهباً غريبا ، أنهم كانوا يجزئون الجزور على ثمانية وعشرين جزءاً ، ذهب فى ذلك إلى حظوظ القداح ، وهى ثمانية وعشرون ، للفذ حظ ، وللتوأم حظان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحِلس أربعة ، وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ، وللمعلى سبعة ، فجميع هذه ثمانية وعشرون .

قال ابن قتيبة [1] : « ولو كان الأمر على ما قال الأصمعى لم يكن هنا قامر ولا مقمور ، ولا فوز ولا خيبة ، لأنه إذا خرج لكل امرئ قدح من هذه فأخذ حظ القدح أخذوا جميعاً تلك الأجزاء على ما اختار كل واحد منهم لنفسه ، فما معنى إجالة القداح ؟ وأين الفوز والغرم ؟ ومن المقامر والمقمور ؟ » .

أعشار امرئ القيس :

وهنا تعترضنا مشكلة فيما عناه امرؤ القيس بقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتّل

---

(١) الميسر والقداح ١٢٠ . وانظر أيضاً تفسير أبى حيان (٢ : ٦٥٥) .

وهذه مشكلة قديمة جداً ذهب العلماء الأقدمون فيها مذهبين متباينين :

أما المذهب الأول فقد لمح أمامه هذا المعنى الجديد الجذاب الذى ظهر للعلماء بعد أن لم يكن معروفاً لهم من قبل ، وهو سهام الميسر وأعشار الجزور . هـذه الجدة والطرافة التى لا بست فَهْمَ هذا الشـعر جعلتهم يتعمقون المعانى تعمقاً أحالها عن حقيقتها ، وساعدهم فى ذلك ما عرفوه فى دراسة الميسر أن سهمين من السهام قد يفوزان بكل أعشار الجزور ، فقد وجدوا أن (المعلى) وهو السهم ذو الحظوظ السبعة ، و (الرقيب) وهو السهم ذو الحظوظ الثلاثة ، من حازهما فى الميسر فقد ظفر بجميع أعشار الجزور . فهذه الحبيبة كأنما جعلت من قلب امرئ القيس مجالا لميسرها ، وتهيأت للظفر فى ذلك الميسر بحيازتها لذينك السهمين ، فظفرت بقلبه كله واستولت عليه استيلاء كما استولى ذو الحظ السعيد على جميع أجزاء الجزور .

ولا ريب أن هذا معنى جميل وبديع ، وفهم ذكى حقاً لو صح أن امرأ القيس عناه ؛ ولـكنه كما قلت من قبل إنما جاء نتاجاً للمَعانِ هـذا المعنى الجديد الذى ظهر للعلماء بالميسر ، وهو شبيه بذلك المذهب العجيب فى تفسير القرآن الـكريم ، الذى

يلتمس فى القرآن عجائب لم يقصدها ، من علوم الطب والفلك والكيمياء ما ظهر منها وما بطن ، كلما لمعت معارف جديدة ، وبعضها لا جرم عرضة للتحول والتبدل ، سلك أصحاب ذلك المذهب بها إليه سبيلا ، متأولين فى ذلك ومتكلفين ، فيسيئون إلى الكتاب العزيز وفهمه من حيث يبتغون الإحسان .

ثم إنا نجد الأصمعى المتوفى سنة ٢١٥ وهو من أقدم الأدباء وأحفظهم للشعر ومعانيه يفهم البيت فهماً طبيعيا ، ويقول فى تفسيره : « معناه دخل حبك فى قلبى كما يدخل السهم »[(١)] .

والزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ يقول : « وللأئمة فى البيت قولان ، قال الأكثرون : استعار للحظ عينيها ودمعهما اسمَ السهم لتأثيرهما فى القلوب وجرحهما إياها ، كما أن السهام تجرح الأجسام وتؤثر فيها . والأعشار من قولهم : برمة أعشار ، إذا كانت قطعا ، ولا واحد من لفظها » .

وزعيمُ من فهم البيت فى ضوء سهام الميسر وأعشار الجزور فيما نعلم هو ابن قتيبة (٢٧٦) أول من ألف كتابا فى الميسر والقداح . قال فى تفسير البيت[(٢)] : « يقول : لم تدمع عيناك إلا لتستولى على جميع قلبى كما يستولى الرقيب والمعلى على أجزاء

---

(١) انظر شرح المعلقات للأنبارى والتبريزى .

(٢) الميسر والقداح ١٢٢ .

الجزور ، جعل عينيها كالسهمين وقلبه كالأعشار » .

ثم أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٩١) قال : « أراد بقوله بسهميك هنا سهمى قداح الميسر ، وهما : المعلى والرقيب ، فللمعلى سبعة أنصباء وللرقيب ثلاثة ، فإذا فاز الرجل بهما غلب على جزور الميسر كلها ولم يطمع غيره فى شىء منها . وهى تقسم على عشرة أجزاء ، فالمعنى أنها ضربت بسهامها على قلبه فخرج له السهمان فغلبت على قلبه كله وفتنته فملكته[1] » .

وردَّد هذا القول من بعدهما الأنبارى (٣٠٤) وعاصم ابن أيوب البطليوسى شارح الديوان (٤٦٤) والزوزنى (٤٨٦) والتبريزى (٥٠٢) كما ردد هؤلاء الأربعة التفسير الآخر أيضاً ، لم يجزموا بأحد التفسيرين وإن كان الزوزنى يميل إلى التفسير المخالف للميسر والقداح .

وقد أثَّر هذا الفهم الغريب فى بعض الشعراء المحدثين فقالوا فى هذا المعنى ، ومنهم أبو عبد الله محمد الشاذلى[2] :

إذا قَسَمَ الهوى أعشار قلبى فسهماكِ المعلى والرقيب

قال الزبيدى : « وفيه تورية غريبة فى التعبير بالسهمين ، وأراد بهما عينيها ، والمعلى له سبعة أنصباء والرقيب له ثلاثة ،

---

(١) اللسان (عشر) .

(٢) نشوة الارتياح للزبيدى ص ٥٠ من مجموعة (طرف عربية) .

فلم يبق له من قلبه شيء ، بل استولى عليها السهمان » :

١ — ولكنا إذا استفتينا طبيعة الشعر العربى فى الجاهلية والإسلام ، نجدها ناطقة بأن العرب يشبهون عين المرأة بالسهم النافذ فى قلب العاشق . يقول أبو هِفان :

أخو دَنف رمته فأقصدته سهامٌ من جفونك لا تطيش

وأبو تمام :

يا من بعينيه لى غرامٌ قَرَّب من مُهجتى حمامى

قد رَوِيتْ من دمى ، فحسبى صوائبُ النَّبل والسهام

وابن الرومى :

نظرَتْ فأقصدت الفؤادَ بطرفها

ثم انثنَتْ عنى فكدتُ أهيم

ويلاه إن نظرتْ وإن هى أعرضَتْ

وقعُ السِّهام ونزعهنَّ أليم

والعسكرى :

إذا كرّتْ لواحظُ مقلتيه حسبتَ قلوبنا مُطِرت سهاما

٢ — وامرؤ القيس نفسه يعيد هذا المعنى الطبيعى فى شعره ، وهو قوله :

رمتنى بسهم أصاب الفؤادَ غداةَ الرَّحيل فلَمْ أنتصِرْ

قال البطليوسى فى تفسيره : «قوله رمقنى بسهم ، يريد بالسهم عينيها . يقول : أصابتني بمحاسنها فقتلتنى ولم أنتصر منها » .

ولا ريب أن السهم الذى أصاب قلبه فى هذا البيت هو السهم الذى أصابه فى البيت الآخر .

على أن البطليوسى يذكر أن هذا البيت أيضا روى : «رمقنى بسهمين صابا الفؤادَ » ثم يقول : « صاب وأصاب بمعنى » .

فذكر هنا السهمين كما ذكرهما فى البيت الآخر ، وليس من المعقول بأن يفسَّرا بسهام الميسر .

٣ — ثم إن البيت نفسه روى بهذه الرواية : « وما ذرفت عيناك إلا لتقرحى[1] » . والقرح . الجرح . وإنما يكون الجرح بسهام القوس لا بسهام الميسر .

فمن ذلك كله يتضح أن تفسير السهام بسهام الميسر ، والأعشار بأعشار الجزور ، إنما هو تفسير اندفاعى لا ينساق مع طبيعة الشعر العربى ، ولا ينسجم مع طبيعة شعر امرئ القيس نفسه .

عدد الأيسار :

والأيسار : المتقامرون ، واحدهم « أيسر » بالتحريك .
وكان الحد الأقصى للأيسار أن يكون سبعة ، على عدد

---

(١) البطليوسى فى شرح الديوان ٢٦ — ٢٧ .

قداح الميسر ، لا يتجاوز عددهم ذلك ، وليس لهم حد أدنى يقفون عنده ، فإذا كان عددهم سبعة قالوا : قد تُوُحِّدت القداح ، أى أخذ كل رجل قدحا ، وإنما يكون ذلك فى المجاعات الشديدة وغلاء اللحم ، فيحتاج الأمر فى التكافل إلى هذا العدد الكبير .

وإذا نقص عدد الأيسار عن السبعة فلا بد أن ينبرىَ واحد منهم أو أكثر ويأخذ أكثر من قدح واحد ويتأهب للمغامرة . ويسمون ذلك الآخذ « متمم الأيسار » . وهم يعدون ذلك التتميم مفخرة وفضيلة . قال النابغة :

أنى أتمم أيسارى وأمنحُهم مَثْنَى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما[1]

قداح الميسر :

١ — يقال للواحد من قداح الميسر قدح ، بالكسر ، وسهم وزلم ، وقلم . وأكثرها استعمالا فى ذلك هو « القِدح » .

٢ — والقداح : عيدان تتخذ من النبع ، وهو شجر تصنع منه القسى والسهام ، ينبت فى قلة الجبل ، معروف بالمتانة واللين .

٣ — وتنحت هذه العيدان وتملس وتجعل سواءً فى الطول ،

---

(١) هذا صواب إنشاد البيت بفتح همزة « أنى » ، ومن رواه بكسرها فقد أخطأ الصواب ، وذلك لأن قبله كما فى ديوان النابغة ٥٧ :

ينبئك ذو عرضهم عنى وعالمهم وليس جاهل شىء مثل من علما

وإنما تختلف فى العلامات والوسوم :

٤ — وهى صغيرة القدر ، قال ابن قتيبة : « وتسميتهم لها بالحِظاء دليل على أنها كصغار النبل » .

٥ — ولهذه القداح رأس صغير ، قال ابن قتيبة : « ووجدت الشعر يدل على أن له رأسا أحسبه ناقصا عن مقدار جسمه ، حديد الطرف » ، واستشهد لذلك بقول الراعى :

بدا عائداً صَعْلًا ينوء بصدره   إلى الفوز من كفّ المفيض المؤرِّبِ

والصعل : الصغير الرأس ، ولذلك قيل للظليم ، ولأنه أيضاً قد يَقدُم فيصفرّ كما تصفر القوس العتيقة .

٧ — ويصفونه بالاعوجاج والأود ، دلالة على كرم عوده ولينه .

٨ — وكثيراً ما يكون ذا سفاسق ، أى طرائق وخطوطا مستقيمة أو منحنية تكون فى لون العود ، كما تكون فى الخلنج وأعواد السروج وأشباه ذلك :

٩ — وهو مدور أملس كالسهم .

١٠ — ويصفونه بالحنين والرنين إذا ضُرِب به ، وذلك لرزانته وسلامة عوده من القوادح والسوس ، فإذا ضرب به حَنَّ ورن كما يطن الصُّفر والحديد .

هذا ما أمكن الإمام ابن قتيبة أن يستخرجه من الشعر العربى لينقل إلينا ذلك الوصف الدقيق لقداح الميسر .

عدد القداح وأسماؤها

هذه القداح التى مضى وصفها فى الفصل السابق ليست كلها على نمط واحد ، بل هى نوعان :

النوع الأول : القداح ذوات الحظ ، وعددها سبعة ، وهذا العدد يقابل الحد الأقصى لعدد المتقامرين .

النوع الثانى : القداح التى لا حظ لها ، وعددها ثلاثة .

قداح الحظ

١ — الفذ ، وله حظ واحد .

٢ — التوأم ، وله حظان اثنان .

٣ — الرقيب ، وله ثلاثة حظوظ .

٤ — الحِلس ، وله أربعة حظوظ .

٥ — النافس ، وله خمسة حظوظ .

٦ — المسبِل ، ويسمى أيضاً المصفَح ، وله ستة حظوظ .

٧ — المعلى ، وله سبعة حظوظ .

وهذه السهام السبعة متشابهة الأجسام ، لا يمتاز بعضها من

بعض إلا بعدد الفروض ، أى الحزوز التى تحز فيها لتبين قدرها . فللفذ حز واحد ، وللتوأم حزان اثنان ، وللرقيب ثلاثة . وهكذا .

وربما كانت هذه العلامات بالنار ، يَسِمونها بالوسم والوسمين والوسوم ، بدلا من تلك الحزوز[1] .

وقد نظم أبو الحسن على بن محمد الهمدانى أسماء سهام الحظ فى قوله[2] :

يلى الفذ منهـا توأم ثم بعده رقيب وحلس بعده ثم نافس
ومسبلها ثم المعلى فهذه الا سهام التى دارت عليها المجالس

ونظمها كذلك الصاحب بن عباد فى قوله[3] :

إن القداح أمرها عجيب الفذ والتـوأم والرقيب
والحلس ثم النافس المصيب والمصفح المشتهر النجيب
ثم المعـلى حظه الرغيب هاك فقد جاء بها الترتيب

ونظمها أيضاً البقاعى فى تفسيره بقوله :

الفذ والتـوأم والرقيب والحلس والنافس يا ضريب
ومسبل مع المعلى عدوا ثم منيح وسفيح وغد

وأنشد الراغب الأصفهانى[4] أبياتاً نسبها لعروة بن الورد ،

---

(١) الميسر والقداح ٧٥ .
(٢) بلوغ الأرب (٣ : ٥٨) .
(٣) محاضرات الراغب (١ : ٣٤٤) .

يذكر فيها أسماء القداح الفائزة ، وأراها من مصنوع الشعر ومولَّده ، وهى :

أتت بالمعلى عند أول سورة
وبالمسبل التالى وبالحلس والتوم (١)

وجاءت بفـــذ والضريب يليهما
وبالنافس المعلوب فى الرأس والقدم (٢)

فراح بها غنم وتغرم ما جنت
وقد يغرم المرء الكريم إذا اجترم

وأنت منيح باليدين متى تعد   تعد صاغراً لا مال نال ولا غرم

وهذه الأبيات المهلهلة لم ترد فى ديوان عروة ، وليست من شعره بسبب ، وهى أشبه ما يكون بشعر ابن مالك فى ألفية النحو ، أو بشعر أبى الحسن على بن محمد الهمدانى الذى سبق الإنشاد له ، كما أن ما فيها من الخطأ الفنى ينطق ببطلان نسبتها إليه ، فإن هذه القداح لا يمكن أن تخرج جميعاً فى ميسر واحد ، كما سيأتى القول عن الكلام على (مجلس الميسر) .

وكان العرب فى بعض الأحايين يستعيرون قدحاً ميموناً ،

---

(١) أراد « التوأم » وهو القدح الثانى من قداح الميسر .

(٢) المعلوب : الذى به العلب ، وهو الحز وأثر الضرب . والجمع علوب .

أى قدح كان من السبعة ذوات الحظوظ ، قد جرب من قبل فوجد سريع الخروج فى الميسر ، يستعيرونه من غيرهم و يجعلونه فى قداحهم بدلا من آخر مثله ، تيمناً به و بما يجلبه من الظفر ، ويسمون ذلك القدح « المنيح[1] » ، وهو غير المنيح الذى سيأتى ذكره فى القداح التى لا حظ لها .

وكانوا يأخذون من هذه القداح على قدر احتمالهم ، فأقلهم حالا هو آخذ « الفذ » ، لأنه إن ربح غنم حظاً واحداً و إن خاب غرم حظاً ، و يليه فى القدرة آخذ « التوأم » ، إن فاز فاز بحظين ، و إن خاب غرم حظين ، وأقدرهم وأعلاهم شرفاً هو صاحب « المعلى » لأنه إن خاب غرم سبعة حظوظ فاحتملها .

القداح التى لا حظ لها :

وهناك قداح لا حظ لها ، وهى بحجم قداح الحظ ، ولكنها مجردة من السمات والعلامات ، تجعل مع قداح الحظ ليكثر بها العدد ، ولتؤمن بها حيلة الضارب فتختلط عليه فلا يجد إلى الميل مع أحد سبيلا ، وليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من

---

(١) الميسر والقداح ٥٩ .

المحاباة[1]، وتسمى هذه القداح « الأغفال » : جمع غفل ، بالضم ، وأصله فى الدواب ما لا سمة له ، ومن الأرَضين ما لا علم فيها .

وهذه القداح ثلاثة فى أصح الأقوال :

١ — الوغد .

٢ — السفيح .

٣ — المنيح .

وقد نظم أسماءها بعضهم فى قوله[2] :

لى فى الدنيا سهام ليس فيهن ربيح
وأساميهن وغـــد وســفيح ومنيح

وقيل : وهذا قول شاذ — إن عددها أربعة[3] :

١ — المصدَّر

٢ — المضعَّف

٣ — المنيح

٤ — السفيح

---

(١) قال ابن قتيبة تعليقاً على هـذا : « وبلغنى أن المتقامرين بالنرد إذا أحسوا من الرجل إلقاء الفص على الوجه الذى يريده بالرفق — وهو ما يسمى فى عصرنا هذا فى مصر بالقرص — ألقوا مع الفصين فصاً ثالثاً أو فصين ليس عليهما رقوم . أو حصيات ، ليأمنوا الحيلة » . فلأمر ما اتخذ العرب هذه القداح مع قداح الحظ .

(٢) الفخر الرازى (٢ : ٢٢٠) .

(٣) تفسير أبى حيان (٢ : ١٥٤) .

الخريطة :

وتسمى أيضاً « الربابة » بكسر الراء ، وهى وعاء من الجلد مثل كنانة سهام الرمى ، توضع فيها القداح . وهى واسعة ليمكن استدارة القداح فيها واستعراضها ، ولها فم ضيق بقدر أن يخرج منها قدحان أو ثلاثة[1] .

الحرضة :

بضم الحاء ، ويسمى أيضاً « المجيل » و « المفيض » و « الضارب » ، وهو الرجل المكلف بتقليب السهام فى الخريطة ثم دفعها من فم الخريطة . وكانوا يلفون يده بقطعة من جراب ، لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة ، وهم يصفون ذلك المفيض بحدة النظر وسرعة تقليبه ، ويقولون فى أمثالهم : « نظر بعين مفيض[2] » .

وفى ذلك يقول بَشَامة بن عمرو ، يصف نشاط ناقته :

بعينٍ كعينِ مُفيضِ القِداح إذا ما أراغ يُرِيد الحَوِيلا

جعلها فى حِدّة نظرها ويقظتها كالمفيض إذا حاول الاحتيال .

---

(١) الميسر والقداح ١٣٢ .
(٢) شرح الأنبارى للمفضليات .

وأحياناً يشدون عينيه بعصابة ليحولوا بينه و بين رؤية القداح[١] .

والحرضة هو الذى يستل السهم بعد أن يبرز وينشز ، ويسلمه للرقيب دون أن يراه .

ولا يكون الحرضة إلا ساقطاً برما ، يَدْعونه بذلك لرذالته وسقوطه .

قال أبو الهيثم[٢] : الحرضة : الرجل الذى لا يشترى اللحم ولا يأكله بثمن إلا أن يجده عند غيره .

الرقيب :

ويسمى أيضاً « رابئ الضُّرَباء[٣] » . ويختار فى العادة من الأمناء الموثوق بهم من الرجال ، وواضح أن مهمته هى مراقبة « الحرضة » وإدارة رحى الميسر . ويكون مجلس الرقيب خلف الحرضة ، ليتمكن من مراقبته . وهو الذى تسلم إليه السهام بعد خروجها ليَعلم مَنْ صاحبُها وليعلن اسمَه حينما يفوز ، كما أنه يردُّ السهامَ الأغفال إن خرجتْ مرة ويعيدها إلى الربابة ، ويأمر

(١) الميسر والقداح ١٣٠ .
(٢) اللسان (حرض) .
(٣) الضرباء : جمع ضريب ، وهو ضارب القداح الموكل بها ، والرابئ والربيئة هو الرقيب .

الحرضة بجلجلة الأقداح وإفاضتها حتى يخرج سهم آخر من قداح الحظ .

وإفاضة الأقداح : أن يدفعَها دفعة واحدة إلى الأمام ليخرج منها قدح أو أكثر .

مجلس الميسر :

هو نادى القوم يجتمعون فيه فى ليل الشتاء ، وقد أوقدوا ناراً ، لتدل العفاة والمعوزين فى ظلام الليل . وفى ذلك يقول عبد يغوث بن وقاص :

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل ‏ ‏ لخيلى كرى نفسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ‏ ‏ لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

وقد أحضر القوم جزورهم ونحرها الجازر وقسمها عشرة أجزاء بعد أن ترك لصاحب الجزور « الثُّنْيان » وهو ما استثنى لنفسه من الرأس والأطراف فى غالب الأمر ، وبعد أن حفظ لنفسه « الرَّيْم » ، كما سبق القول عند الكلام على الجزار .

١ — ويَحضر الحرضة ومعه الخريطة والقداح ، وحينئذ يتبارى رءوس القوم وأشرافهم فى أخذ القداح ، فأعلام قدراً هو من يأخذ « المعلى » ذا الحظوظ السبعة ، وأقلّهم شأناً هو صاحب « الفذ » الذى له حظ واحد .

وذلك أن نظام الميسر مبنيٌّ على قاعدة الغُنْم بالغرم ، أى أن من يتعرض لأخـذ أكبر السهام حظًّا يكون لديه استعداد أن يغرم أكبر الغرم حينما يخيب حظه ، إذ أن الغرم يتناسب تناسباً مطرداً مع الغنم . وأما صاحب الفذ فهو إن فاز فاز بحظ واحد ، وإن خاب تحمل مغرم حظ واحد .

٢ — وبعد أن يختار القوم سهامهم ويسجّلها عليهم الرقيب[١] توضع هـذه السهام ذوات الحظ فى الخريطة ومعها السهام الأغفال الثلاثة التى لا حظ لها .

٣ — ويؤتى بالحرضة ، وهو المكلف بإجالة القـداح فى الخريطة ، ثم يؤخذ ثوب شديد البياض فيلف على يده ، ويسمى ذلك الثوب « المجول » . وإنما يجعل ذلك الثوب على يده ليعشى بصره فلا يعرف قدح زيد دون عمرو . هـذا بعد أن تلف يده بقطعة من جراب ، مبالغة فى الحيطة . وأحياناً يعصبون عينيه ويلفون يده .

٤ — ويجلس خلفه الرقيب[٢] وقد استدار الأيسار حوله ،

---

(١) وأحياناً يختار الياسر اسما لقداحه غير الاسم المتداول تدليلا له كأن يسميه « المربوع » أو « العذار » مع الاحتفاظ باسمه الأصيل . الميسر والقداح ٥٦ — ٥٧ .

(٢) يشهد لذلك قول كعب بن زهير :

لها خلف أذنابها أزمل مكان الرقيب من الياسرينا

ومن خلفهم جمهور النظارة يشهدون ما يكون من ذلك ، وفى هذا الجمهور طائفة الفقراء ، الذين يحملون بؤسهم فى جهد و إعنات ، تدور أعينهم فوق كُومات اللحم ، وتشرئب أعناقهم وأسماعهم نحو الحرضة والرقيب .

٥ — و بعد أن يكتمل المجلس يصدر الرقيب أمره إلى الحرضة أن يجيل القداح وأن يجلجلها فى الخريطة ، فيفعل ذلك مراراً ، فإذا فعل أمره أن يفيض القداح ، أى أن يدفعها إلى فم الخريطة . وذكر النويرى[1] أن الحرضة يدخل شماله من تحت المجول . وهو ثوب أبيض يبسط بين يدى الحرضة — فينكز القداح بشماله .

٦ — وحينئذ يبرز أحد القداح فيستله الحرضة ، وهو إن كان غير معصوب العين لم ينظر إليه فى هذه الحالة ، ثم يناوله الرقيب ، وتحدث عندئذ ضجة من الرقيب يعلن فيها اسم الفائز ، يصيح بأعلى صوته : هذا قدح فلان ، أو فاز قدح فلان ! ذكر ذلك الخليل فى تفسير قول أبى ذؤيب :

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع[2]

---

(١) نهاية الأرب (٣ : ١١٩) .

(٢) وقيل معنى يصدع يفرق بالحكم . نشوة الارتياح للزبيدى ٤٧ .

٧ — فإذا فاز أحدهم أخذ نصيبه واعتزل القوم فأفاض الباقون على بقية الجزور ، فإن شاء ذلك الفائز أن يعود بقدحه سألهم ذلك ، فإن أحبوا إجابته أجابوه وردوا قدحه معهم واستؤنفت الإفاضة . ويعد هذا العمل مكرمة لصاحبه الفائز الذى يأبى أن يظفر ذلك الظفر السهل ، ويأبى إلا أن يعرض نفسه للغرم الذى جانَبه فى أول الأمر .

ويسمون هذا العمل « التثنية » ، وهو الذى عبر عنه النابغة الذبيانى بمثنى الأيادى فى قوله :

أنى أتمم أيساوى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما(١)

٨ — وإذا ظهر سهم من السهام الأغفال أمر الرقيب الحرضة بإعادته فى الخريطة ، ومعاودة الجلجلة والإفاضة حتى يظهر سهم ذو حظ .

ولا يكف الحرضة والرقيب عن هذا العمل حتى يكون مجموع أنصباء السهام الخارجة عشرة أنصباء على الأقل .

الغنم والغرم :

ليس نظام الغنم والغرم فى الميسر نظاماً ساذجاً ، بل هو نظام

---

(١) الميسر والقداح ١٥٢ .

محكم يدل على ما كان يتمتع به أسلافنا العرب من ذهن وقاد ، وفكر ناضج .

و إليك بعض النماذج من أقضية الميسر ، وأحكام العرب فى مغانمها ومغارمها . وسأعيد هنا ذكر قائمة المغانم والمغارم ليسهل لك عرض تطبيق الأحكام عليها :

(ا)	صاحب الفذ ، ونصيبه فى الغنم والغرم	(١)
(ب)	« التوأم ، » » » »	(٢)
(حـ)	« الرقيب ، » » » »	(٣)
(ء)	« الحلس ، » » » »	(٤)
(هـ)	« النافس ، » » » »	(٥)
(و)	« المسبل ، » » » »	(٦)
(ز)	« المعلى ، » » » »	(٧)

(القضية الأولى)

خرج قدح (ا) ثم قدح (ب) ثم قدح (حـ) ثم قدح (ء) ومجموع أنصباء هذه القداح عشرة ، و بذلك يكون الميسر قد تم فكل واحدمن أصحابها يأخذ نصيبه ، فيأخذ (ا) عُشْرا ، و(ب) عشرين ، (حـ) ثلاثة أعشار ، (ء) أر بعة أعشار ، و يعتزل كل منهم الميسر غانماً ، و يبقى الثلاثة الغارمون الذين يضمنون ثمن

الجزور ، وهم (هـ) ، (و) ، (ز) . ولنفترض أن ثمن الجزور ٧٢ ديناراً ، فتفرض عليهم بالتناسب العددى ، أى بنسبة ٥ : ٦ : ٧ فيغرم (هـ) ٢٠ ديناراً ، (و) ٢٤ ديناراً ، (ز) ٢٨ ديناراً .

(القضية الثانية)

خرج (ب) و (حـ) و (هـ) فائزين ومجموع حظوظهم ٢،٣،٥ أى عشرة حظوظ ، وبذلك تم الميسر ، فيأخذ كل منهم نصيبه ويعتزل ، ويبقى الغرم على (ا) ، (ى) ، (و) ، (ز) ونسبة مغارمهم ١ : ٤ : ٦ : ٧ .

ولنفترض أيضاً أن ثمن الجزور ٧٢ ديناراً ، فيغرم (ا) ٤ ، (ى) ١٦ ديناراً ، (و) ٢٤ ديناراً ، (ز) ٢٨ دينارا .

(القضية الثالثة)

خرج فى أول الإفاضة قدح صاحب (المعلى) ، ونصيبه ٧ فاستولى عليه واعتزل ، ثم خرج قدح صاحب (المسبل) وحظه ٦ مع أنه لم يبق من أجزاء الجزور بعد المعلى إلا ٣ تقمة العشرة ، فيأخذ صاحب المسبل الثلاثة الأجزاء الباقية بعد نصيب صاحب المعلى ، ويغرم له القوم الذين لم تخرج سهامهم ثمن ثلاثة أعشار الجزور ، استكمالا لحظه ، وتكون غرامتهم فى ذلك متناسبة مع نسبة أنصبائهم فى الغنم لو غنموا .

ويغرم القوم الخائبون أيضا ثمن الجزور، متناسبة غرامتهم مع نسبة أنصبائهم أيضا.

وهذا الحكم السهل فى أمثال هذه القضية الأخيرة، هو الذى ذكره ابن قتيبة. وإنما يلجأون إليه ويرتضونه إذا لم يمكنهم نحر جزور ثانية.

فإذا أمكنهم نحر جزور ثانية فإنهم ينتظرون بسائر القداح لا يخرجون منها شيئا بعد أن ظفر صاحب المعلى، لأنّ المسبل لم يجد له حظا كاملا، لأن حظه ستة أجزاء، مع أن الباقى من الأجزاء ثلاثة.

وحينئذ يقفون الإخراجَ ويعدُّون جميعَ الأيسار خائبين، إلا صاحب المعلى، ويلزمونهم الغرم فى الجزور الأولى بحسب أنصبائهم من جهة، ثم يخلقون لهم جميعا فرصة فى جزور أخرى، فينحرونها ويجزئونها أعشارا، ثم يضربون عليها بالقداح، فإن خرج (المسبل) أخذ صاحبه ستة أجزاء: ثلاثة منها على الباقية من الجزور الأولى، وثلاثة من الجزور الثانية. فإن استوى ثمن الجزورين كان صاحب المسبل كأنه لم يغرم شيئا ولم يغنم شيئا لأنه غرم ستا وغنم ستا، فتعادل ماله وما عليه.

وبقى من الجزور الثانية بعد المسبل سبعة أجزاء، تضرب

عليها سائر القداح ، فإن خرج (النافس) أخذ صاحبه خمسة أجزاء من السبعة الباقية ، فبقى جزءان .

وفى هذه الحالة بقى قدح حظه أكبر من الجزءين ، وهو (الحلس) ، وله أربعة أجزاء ، فيعدون صاحبه خائبا فى الجزور الثانية يلزمه الغرم فيها بمقدار حظه متضامناً مع سائر الخائبين ، فيتيحون له الفرصة فى نحر جزور ثالثة ، فإن خرج غنم أربعة أجزاء : اثنان من الثانية ، واثنان من الثالثة . فإن استوى ثمن الجزورين كان كأنه لم يغرم شيئاً ولم يغنم شيئاً .

وبقى من الجزور الثالثة ثمانية أجزاء ، يضرب عليها بالقداح من بقى حتى تخرج قداحهم موافقة لأجزاء الجزور ، وحتى لا يحتاجوا إلى نحر جزور أخرى ، استكمالا لنصيب متوقع لأحدهم .

* * *

هذا هو الدستور الذى سَنَّه العرب لنظام الميسر ، وهو كما ترى وليدُ طباعهم وعاداتهم ، ووليد حاجتهم البدوية .

ولا ريب أن « الميسر » كان نافعاً للعرب ، كان نافعاً لذوى الحاجة منهم ، لأن العرب فى أكثر ما يقامرون إنما يبغون بذلك نفع الفقراء ، والترفيه عن المحتاجين المعوزين ، وقل أن يَطعَمَ الأيسارُ من لحم الميسر ، وإنما كانوا يفرقونه فى البائسين . زد

إلى ذلك ما كان يحدثه الميسر من رواج فى سوق الإبل وبيعها وشرائها .

ذكر الواقدى أن الواحد منهم ربما قمر فى المجلس الواحد مائة بعير ، فيحصل له مال من غير كد وتعب ، ثم يصرفه إلى المحتاجين فيكتسب منه المدح والثناء[١] .

ولا ريب أيضاً أن الميسر كان ضاراً للعرب ، فهو أكل مال بالباطل ، وهو كان يدعو المقامرين كثيراً إلى السرقة واغتصاب الأموال والنفوس ، للحصول على فوز رخيص فى ذلك المضمار ، وهو كان مجلبة عظيمة للعداوات بينهم والحزازات التى تثيرها المنافسة وحب الذات . وكانت مجالس الميسر مجالا فسيحا للمنازعات والمهاترات ، وميدانا خصبا للهجاء والشتم والإقذاع . هذا إلى ما يكون من إنفاق زمانهم فى سخاء ظاهر ، فيما يشغلهم عن غيره من جلائل الأمور ، والسعى لاكتساب الرزق من شريف الأبواب .

ومفاسد الميسر فى عصرنا الحاضر واضحة وضوحا بينا ، مهلكة إهلاكا للنفوس والضمائر ، قاضية على هناءة الأسرة وترابط الجماعة .

---

(١) الفخر الرازى (٢ : ٢٢١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ، وإذ يقول : « وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وقد أتى الإسلام فى ذلك بعلاج ناجع ، علاج يجتث البؤس من أصله ، ويقتلعه من أرومته ، هو نظام (الزكاة) تؤخذ من الغنىّ فى رضاً من دينه ، وتعطى للفقير فى كرامة من نفسه .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سَكَنٌ لهم » . « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المُضْعِفون » .

أولية الميسر :

ويزعمون أن أول من وضع الميسر وأجال القداح على الجزور هو لقمان بن عاد[١] ، فنسبت الأيسار إليه . قال طرفة :

وهمُ أيســـــار لقمان إذا   أغلت الشتوة أبداء الجزر

وأنا أرى أن هذا الزعم راجع إلى ما كان يتمتع به لقمان من إجلال خاص وإعجاب عند عرب الجاهلية[٢] .

---

(١) الميسر والقداح ٤٧ وكتاب الزينة لأبى حاتم الرازى ٣٧٢ نسخة الشيخ محمد الهمدانى .

(٢) انظر ثمار القلوب للثعالبى ٦٣ ، ٢٥٧ .

وذكر الميدانى[1] أنه كان للقمان بن عاد أيسار ثمانية يضربون معه ، وهم بِيض ، وحممة ، وطفيل ، وزُفافة ، ومالك ، وفَرعة ، وثُميل ، وعمار .

هل بقى الميسر فى الإسلام :

كان لأهل الجاهلية كثير من العادات والنظم الشنيعة التى جاء الإسلام من بعدُ ونصَّ على تحريمها ، ونهى عن مزاولتها . ومن ذلك وأد البنات وما كان فيه من شناعة قتل النفس التى حرّم اللهُ إلا بالحق . ومنها نكاح المَقْت ، وهو نكاح زوجة الأب ، ومنها توريث الذكر دون الأنثى ، ومن ذلك شن الحروب فيما بينهم للسلب والنّهب ، ومنها الميسر ، والاستقسام بالأزلام ، وشرب الخمر ، وكثير غيرها من عادات الجاهلية .

وقد قضى الإسلام على معظم هذه المفاسد قضاء مبرماً ، فلم نسمع بأن شيئاً منها حدث فى الإسلام إلا ما كان من شرب الخمر ، فإن غلبتها لضعاف النفوس من المسلمين كانت غلبةً متصلة الحلقات ، لم يسلم عصر ولم يسلم بلد ممن كان يشرب الخمر ويحد فيها ، ويلقى جزاء الشارب .

ولكننا لم نسمع ولم نقرأ أن قوماً من المسلمين اجتمعوا لمزاولة

---

(١) مجمع الأمثال فى (أيسر من لقمان) .

الميسر الجاهلى على نحو ما كان يصنع العرب قديماً ؛ فلم تكد تظهر شمس الإسلام على ذلك الباطل حتى أزهقته وقضت عليه قضاء ، ومحت معالمه ، حتى تعذَّر على بعض الرواة القريبى العهد بالجاهلية أن يعرف حقيقته أو يَظهر على كنهه ، وحتى وجدنا إماما كبيرا من أئمة العربية — وهو الأصمعى — يخطئ فى ذلك خطأ ظاهرا ، كما أسلفنا القول(1) .

وقال البقاعى فى تفسيره عند الكلام على الميسر : « قال أبو عبيد : ولم أجد علماءنا يَستَقْصون علم مَعرفةِ هذا ولا يدَّعونه . ورأيت أبا عبيدة أقلَّهم ادعاء له . قال أبو عبيدة : وقد سألت عنه الأعراب قالوا : لا عِلْمَ لنا بهذا ، هذا شيء قد قطعه الإسلامُ منذ جاء ، فلسنا ندرى كيف كانوا يَيْسِرون » .

وحرم الإسلام القمار — وهو ضروب شبيهة بالميسر الجاهلى كما قدمنا — ولكن القمار ظل إلى عصرنا هذا يقترفه الآثمون فى صور شتى . ولعل أفشى صوره وأظهرها اليوم هو (لعب الورق) الذى صار إثما دوليا يلتقى عليه المصرى والأوربى والآسيوى والأمريكى فى يسر ، وصارت قوانينه عرفاً عاما بين المتقامرين على شتى أجناسهم و بلدانهم .

---

(1) انظر ص ٢٥ .

٢

الأزْلامُ

الاستقسام بالأزلام — الأزلام فى الشعر العربى — لماذا استقسم العرب بالأزلام — أزلام لاستقسام — العامل الدينى — تقديس الأزلام — الأزلام فى التاريخ الدينى القديم — التمرد على الأزلام — الأزلام المدنية

الاستقسام بالأزلام :

أما الاستقسام فهو طلب القَسْم ، أى ما يقسم للإنسان ويقدّر . والأزلام : جمع زلم ، بضم ففتح ، أو بالتحريك ، وهو القدح ، بكسر القاف ، أو السهم من سهام الاستقسام .

والأزلام ذكرت فى كتاب الله مرتين :

أولاهما قوله تعالى : « حُرِّمت عليكم الميتةُ والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذةُ والمتردِّيةُ والنَّطيحة وما أكَلَ السَّبُعُ إلاَّ ما ذَكَّيتم وما ذُبِحَ على النُّصُب ، وأن تَستقسِمُوا بالأزلام ، ذلكم فسق[1] » .

والأخرى قوله تعالى : « إنَّما الخمر والميسر والأنصاب

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

والأزلام رِجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه[1] » .

وقد اختلف المفسِّرون فى هذه الأزلام ، هل هى أزلام الميسر وقداحه ، أم هى أزلام أخرى معيَّنة ؟ والراجح المعتمد أن المراد بالأزلام فى الكتاب العزيز ضربٌ آخر من القداح يستعمل فى أغراض أخرى غير الميسر ، سنبسط القول فيه فيما يلى .

ويرجح ذلك :

١ — أنها ذُكرت فى الآية الأولى بعد « النُّصُب » فهناك علاقة بين هذه الأزلام و بين الأنصاب .

٢ — وفى الآية الثانية ذُكِرَ الميسر ، ثم ذُكرت الأنصابُ ثم الأزلام ، ولو كانت الأزلام والاستقسام بها شيئاً هو الميسر لما ذكرت فى الآية مرة ثانية ، أو لذكرت بعد الأزلام مباشرة على طريق الترادف أو نحوه .

٣ — قال الأزهرى[2] : « وقد قال المؤرج وجماعة من أهل اللغة : إن الأزلام قداح الميسر » . قال : « وهو وهم » .

٤ — وقال الفخر الرازى[3] : « قال المؤرج وكثير من أهل اللغة : الاستقسام هنا هو الميسر المنهى عنه ، والأزلام

---

(١) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٢) اللسان (قسم) .

(٣) تفسيره (٣ : ٣٥٧) .

قداح الميسر . والقول الأول اختيار الجمهور » . يعنى بذلك طلب معرفة الخير والشر بوساطة ضرب القداح .

٥ — ومما يؤيد أن المراد بالأزلام فى القرآن غير أزلام الميسر ما روى أبو الدرداء[١] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تكهن أو استقسم أو تطير طِيَرَةً تردُّه عن سفره لم ينظر إلى الدَّرجات العُلَى من الجنة يوم القيامة » . فالاستقسام فى هذا الحديث مقرون بالتكهُّن والتطير . وهذا يدلُّ على أنها أزلام الاستخبار والاحتكام ، لا أزلام الميسر .

٦ — وجاء فى اللسان[٢] رواية عن الأزهرى : « ومعنى قوله عز وجل : وأن تستقسموا بالأزلام ، أى تطلبوا من جهة الأزلام ما قُسِم لكم . ومما يبين ذلك : أن الأزلام التى كانوا يستقسمون بها غير قداح الميسر ، ما رُوِى عن عبدالرحمن بن مالك المدلجى ، وهو ابن أخى سراقة بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة يقول :

جاءتنا رسل كفار قريش يجعلون لنا فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبى بكر ديةَ كلٍّ واحدٍ منهما لمن قتَلهما

---

(١) الفخر الرازى (٣ : ٣٥٧) .

(٢) مادة (قسم) .

أو أسَرها . قال : فبينا أنا جالسٌ فى مجلس قومى بنى مُدلج أقبل رجلٌ منهم فقام على رءوسنا فقال : يا سُراقة ، إنّى رأيت آنفا أسْودةً بالساحل(١) لا أراها إلاّ محمداً وأصحابَه . قال : فعرفت أنَّهم هم ، فقلت : إنهم ليسوا بهم ، ولكنَّك رأيت فلانا وفلانا انطَلَقُوا بُغاة(٢) !! قال : ثم لبثت فى المجلس ساعةً ثم قمت فدخلت بيتى وأمرت جاريتى أن تَخرِج لى فرسى وتحبِسَها من وراء أكمة ، ثم أخذتُ رمحى فخرجتُ به من ظهر البيت فخفَضْت عاليةَ الرمح وخطَطْتُ برمحى فى الأرض حتى أتيت فرسى فركبتها ورفعتها تقرِّبُ بى(٣) حتى رأيت أسودِتَهما ، فلما دنوت منهم حيث أُسمعهم الصوت عثَرَت بى فرسى ، فخررتُ عنها وأهويتُ بيدى إلى كنانتى فأخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها : أُضِيرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره : أن لا أضيرهم . فعصَيت الأزلام وركِبت فرسى فرفَعتها تقرِّب بى حتّى إذا دنوتُ منهم عثَرت بى فرسى وخررت عنها . قال : ففعلت ذلك ثلاث مرات إلى أن ساخت يدَا فرسى فى الأرض » .

---

(١) أسودة : جمع سواد الشخص .

(٢) يريد بذلك أن يصرفه عما هو بسبيله .

(٣) التقريب : ضرب من العدو والجرى .

قال الأزهرى : « فهذا الحديث يبين لك أن الأزلام قِداحُ الأمر والنهى ، لا قداح الميسر » .

الأزلام فى الشعر العربى :

١ — وقد نطق الشعر الجاهلى بأزلام الاستقسام ، إذ يقول طرفة[١] :

فَفَعلنا ذلكمْ زمَنًا ثم دانَى بيننا حَكَمه
أخذ الأزلامَ مقتسِما فأتى أغواها زَلَمُه
عند أنصابٍ لها زفر فى صَعيدٍ جَمةٍ أدَمُه

دانى ، أى قارب . ويعنى بالحكَم الفَلّاق بن شهابٍ السعدى ، أنفذه النعمانُ الأكبر ليصلح بين بكر وتغلب فأصلح بينهما محتكما فى ذلك إلى الأزلام . والزفر من العطايا : الكثيرة[٢] . يعنى بها ما يهدى إلى الأنصاب من قرابين . وعنى بالأَدَم جُلودَ ما ينحَر عندها من الإبل ونحوِها .

٢ — ونطق الشعرُ الإسلامى بذلك الاستقسام . قال

---

(١) ديوان طرفة ١٨ طبع قازان .
(٢) القاموس (زفر) .

الحطيئة[١] يمدح أبا موسى الأشعرى :

لم يزجُر الطيرَ أن مَرَّت به سُنُحا   ولا يُفِيض على قَسْم بأزلام

يريد أنه لا يتطير من السانح والبارح ، ولكنه يمضى متوكلا على الله عز وجل ، ولا يستقسم بالأزلام كما كانت تفعل الجاهلية .

وقال آخر[٢] :

هم المجيرون والمغبوطُ جارهمُ   فى الجاهلية إذ يُستأمَر الزلمُ

٣ — ونلمح فى الشعر العباسى أيضاً وميضا من الإشارة إلى الأزلام أو قداح الاستقسام ، فيما رواه أبو الفرج[٣] من القصة التالية ، عن محمد وُهَيب الشاعر قال :

لما وَلِىَ الحسنُ بن رجاء بن أبى الضَحّاك قلتُ فيه شعرا وأنشدته أصحابَنا : دِعبلَ بن على ، وأبا سعد المخزومىّ ، وأبا تمام الطائى ، فاستحسنوا الشعر وقالوا : هذا لَعمرى من الأشعار التى يُلقَى بها الملوك ! فخرجتُ إلى الجبل ، فلما صرت إلى همذان

---

(١) اللسان (زلم) ونشوة الارتياح ٤٤ . والبيت ساقط من ديوان الحطيئة ولكن شرحه مثبت فيه . وقال السكرى شارحه : « ويروى : « ولا يفاض له قسم بأزلام » والأول أجود » .

(٢) الميسر والقداح ٤٠ .

(٣) الأغانى ١٧ : ١٤٢ .

أخبره الحاجب بمكانى فأذِن لى فأنشـدته الشعر فاستحسن منه قولى :

أجارتَنا إن التعفُّف باليـاس وصَبراً على استدرارِ دنْيا بإبساسِ
حريّان ألا يُقـذِيا بمَذَلَّة كريما وألا يُحوِجاه إلى الناسِ
أجارتَنا إنّ (القِـــداح) كواذبٌ
وأكثر أسباب النَّجاح مع الياس

فأمر حاجبَه بإضافتى . فأقمت بحضرته كلما وصلت إليه لم أنصرفْ إلا بُحمْلانٍ أو خِلعة أو جائزة ، حتَّى انصرف الصيف ، فقال لى : يا محمد ، إنّ الشتاء عندنا عِلْج ، فأعدّ يوماً للوداع فأنشِدْنى الثلاثةَ الأبيات ، فقد فَهِهْتُ الشعر كله(١) . فلما أنشدته :

أجارتَنا إنّ (القداحَ) كواذب
وأكثر أسباب النجاح مع الياسِ

قال صـدقت . فلم يزل يستعيدنى هذا الباب وأنا أعيده عليه ، ثم قال : عدُّوا أبيات القصيدة فأعطُوه لـكل بيت ألف درهم . فعُدّت فـكانت اثنين وسبعين بيتا ، فأمر لى باثنين وسبعين ألف درهم .

---

(١) فههته : نسيته . وفى الأصل : « فهمت » .

لماذا استقسم العرب بالأزلام ؟

كان العرب فى الجاهلية على حَيرة من أمرهم : أديان شتى ، وقبائل شتى ؛ لا نظامَ لهم يجتمعون عليه ، ولا حكومة موحَّدة يرجعون إليها ، ويقفون عند الحدود التى ترسُمها ، والقوانينِ التى تضعها فتكون موضعَ التنفيذ ، والصحراء التى يضطربون فيها فتغتالهم حيناً وتبسط عليهم جَناحَ الأمن حينا ، وكذلك حال الفزع التى كانت تصاحبهم من أشباح الحرب والغاراتِ التى تصبِّحهم وتمسِّيهم ، وتفاجئهم فى ساعةٍ من ليلٍ أو ساعة من نهار . وكذلك حالتهم المعيشية التى تصيبهم بالبؤس المدقِـع والجوع القـاتل أحيانا لاضطراب الحياة الاقتصادية . وكثرة حوادث القتل والاغتيال التى يتعذر عليهم إصدارُ حكم فيهـا . كلُّ أولئك جعلهم فى حيرة من أمرهم ، وألقى عليهم ظلاًّ ممتدا قاتما من التردّد والحيرة ، والشكّ والاضطراب . فـكان لا بدَّ لهم مما يُذهب عنهم هذه الحيرة القاتلة ، فلجأوا إلى وسائل شتى ظنُّوها تجلب إليهم شيئا من الرَّوْح والطمأنينة وإن صارت عليهم حرباً فيما بعد ذلك . لجئوا إلى التفاؤل والطِّيَرَة فحكَّموا الطيرَ والحيوان فى أمورهم ، أيُقْدمون أم يُحجمون . وتفاءلوا بالأصوات والـكلماتِ يلتمسون فيها المعنى الذى يَبسُطهم فيمضون فيما هم

بسبيله ، والمعنى الذى يَقبِضهم فيرتدُّون إلى حيث الأمنُ والسلامة .

قال الجاحظ[1] : « ويدلّ على أنهم يشتقون من اسم الشىء الذى يعاينون ويسمعون قول سوار بن المضرب :

تَغَنَّى الطائرانِ ببين ليلى   على غُصنين من غَرَبٍ وبان
فكان البانُ أن بانت سُليمى   وفى الغَرَب اغترابٌ غير دانى

فاشتق كما ترى الاغتراب من (الغرب) والبينونة من (البان) .

وقال جِران العَود :

جرى يومَ رُحنا بالجمال نزُفُّها   عقابٌ وشَحّاج من البين يَبرحُ
فأمّا العقاب فهى منها عقوبة   وأما الغراب فالغريب المطوح

فلم يجد فى العقاب إلا العقوبة ، ووجد فى الغراب معنى الغربة » .

واستخبروا الجماد ، فكانوا يضربون بالحصَى ليحكم بينهم فى أمرهم ، يُطيعون حكمه وهو الجمادُ لا يَسمع ولا يُبصر ولا يغنى شيئا !

كان يفعل ذلك دهماء العرب ذوو النفوس اللينة الضعيفة .

---

(١) الحيوان (٤ : ٤٤٠) .

ويذكرون أن النابغـة الذبيانى كان من أولئك . زعم الأصمعى[1] أن النابغة خرج مع زَبان بن سيار يريدان الغزو ، فبينما هما يريدان الرحلة إذ نظر النابغةُ وإذا على ثوبه جرادة تجردُ ذاتُ ألوان ، فتطيَّرَ وقال : غيرى الذى خرج فى هذا الوجه ! فلما رجع زبانُ من تلك الغزوة غانما سالما قال :

تخبَّرَ طيرَهُ فيهـا زيادٌ لتخبرَه وما فيها خبير[2]
أقام كأنَّ لقمانَ بن عاد أشار له بحكمته مشـيرُ
تعلمْ أنه لا طَـيرَ إلاَّ على متطيِّرٍ وهو الثُّبور

والبيت الثانى من هذه الأبيات يدلُّنا على مقدار إيمان بعض العرب بالطِّيَرَة ، وخضوعِهم التامِّ لسلطانها . كما أن البيت الرابع يدلّنا على نظرة العقلاء منهم إلى الطِّيَرة ، وأنَّها من صميم الاتفاق لا غير . وكان زَبانُ من دُهاة العرب وساداتهم .

وممن كان لا يرى الطيرة شيئا المرقِّش إذ يقول :

إنِّى غـدوتُ وكنت لا أغدو على واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشـائمُ كالأيا منِ والأيامن كالأشائم
فـكذاك لا خيرٌ ولا شر على أحـدٍ بدائم

---

(١) الحيوان (٤ : ٤٤٧) .

(٢) زياد : اسم النابغة الذبيانى . ومما يجدر ذكره أن العرب يعدون (الجراد) من الطير .

فالعرب فى جاهليتهم كانوا يُضطرُّون إلى ذلك ليجتلبوا قوةَ العزيمة فيما ضَعفت عزيمتهم فيه ، وليقطعوا الشَّكَّ قطعاً بذلك الحكم الحاسم ، الذى يخضعون له خُضوعا كاملا .

١ — فكان العربىُّ إذا أراد السفر والتُّنقلة من موضعه استقسم بالأزلام ، ففى السفر مَخاطر كثيرة ، مخاطر الطريق أن يَضلَّ به ، أو تتعرض له فى جَنَباته السباع ، أو تُطيحَ به العاصفةُ الهوجاء ؛ ومخاطر الراحلة التى يعتليها ، فقد تَهلِك راحلتُه فتستبدُّ به مشقةُ السفر . وتحدِّثه نفسُه بعد ذلك ، أيؤوب سالما غانما ، أم يغتاله الهلاك وتَطويه الخيبة ، فلا بدَّ له أن يقوِّىَ عزمَه باستشارة الأزلام ، فهى التى تأمره ، وهى التى تنهاه .

٢ — وكان العربى إذا ابتغى تجارة ، وليست التجارة أمراً هينا عند العرب ، فلا بد للتجارة فى أغلب الأمر من رحلة إلى شرق البلاد أو غربها ، أو شمالها أو جنوبها ، وفى ذلك التعرضُ للسَّلب والنهب والعداوات القَبَلية . فهو قبل أن يضع رجلَه فى غَرْز ناقته يستفتى الأزلام لتبشِّره بالفوز وتؤيد رأيَه فى القيام بهذه الرحلة ، أو لتردَّه عما عسى أن يكون قد كَمَن له فى ثَنِيَّات الطريق من مخاوفَ وأخطار .

٣ — وكان العرب يُلقون بالاً كبيرا إلى الأنساب ،

يتحرّجون أن يدخل الأجنبيُّ فى أنسابهم ، مبالغةً منهم فى حَصانة القبيلة وتماسُكِها ، فإذا شكُّوا فى نسب مولودٍ أو رجل فليست لهم وسيلةٌ تذهب عنهم ذلك الشكَّ إلا أن يحتكموا إلى الأزلام لتخبرهم بصحّة نسبِه أو بطلان ذلك .

٤ — وكانوا إذا خرجوا فى حرب عرّجوا قبل ذلك على أمين الأزلام ، ليكشف لهم بأزلامه عما يخبّئُ الغيب لهم من فوز وغنيمة ، أو خيبة و إخفاق ، فيمضون أو يرتدُّون .

٥ — و إذا حصل بينهم (مدارأة) أى خلافٌ وخصومة ، فإنّ الحَكَم فيها هو الأزلام[١] .

٦ — و إذا أرادوا استنباط المياه وأرادوا أن يحفروا بئرا ضَرَبوا بالقداح يستأمرونها فى ذلك[٢] .

٧ — وكذلك الأمر إذا عزم أحدُهم على زواج ، أو على خِتان ولدِه ، أو على بناء قُبّته ، وسائر شؤون الحياة التى يطرأ عليه فيها الشكّ والاضطراب[٣] .

---

(١) المحبر لابن حبيب ، بتحقيق الدكتورة إيلزه ص ٣٣٢ .
(٢) تفسير أبى حيان (٣ : ٤٢٥) والسيرة لابن هشام ٩٧ طبع جوتنجن .
(٣) المحبر ، وتفسير أبى حيان ، وتفسير الفخر (٣ : ٣٥٧) ، والميسر والقداح ٣٩ — ٤٠ .

أزلام الاستقسام :

وأزلام الاستقسام هذه شبيهة بقداح الميسر ، فهى عيدانٌ تسوَّى مثلَ ما تسوَّى عيدان قداح الميسر . و إنما سمِّيت هذه القداح بالأزلام لأنها زُلِّمت ، أى سويت . و يقال : رجل مُزلَّم وامرأة مزلمة ، إذا كان خفيفاً قليل العلائق . و يقال : قدح مزلَّم ، وزلَمَ إذا ظرف وأجيد قدُّه وصُنعه . وما أحسن ما زلَّم سهمه ، أى سواه . و يقال لقوائم البقر أزلام ، شبِّهت بالقداح للطافتها[1] .

وقد أسلفنا القول أنّ قداح الميسر تحزّ فيها حزوز ، أو تُوسَم بوُسوم تميز بعضَها عن بعض . ولـكن أزلام الاستقسام كانت تُعلَم بعلامات أُخَر تتَّفق مع الغرض الذى أعِدَّت له ، وذلك بكتابةٍ خاصّة تسجَّل عليها ، كما سيأتى .

و يختلف الرواةُ فى عدد هذه الأزلام فيبلغون بها الثمانية عَدًّا . كُتِب على واحد منها : (أمرنى ربى) ، وعلى واحد منها : (نهانى ربى) وعلى واحد : (منكم) ، وعلى واحد : (من غيركم) وعلى واحد : (مُلصَق) وعلى واحد : (العَقْل) أى الدية . و يضمُّون إلى هذه الستة قدحاً غُفْلا لم يكتب عليه شىء ، فإن خرج الغُفل مرّة أعيد الضَّربُ إلى أن يَخرج غيرُه من القداح .

---

(١) الفخر الرازى (٣ : ٣٥٧) .

وذكر ابن حبيب فى المحبر[1] أنه قد كتب على أحدها (افعل) وعلى الثانى (لا تفعل) وعلى الثالث (نعم) وعلى الرابع (لا) وعلى الخامس (خَير) وعلى السادس (شرّ) وعلى السابع (بطىء) وعلى الثامن (سريع) . وذكر أيضا أنه كتب على بعضها (صريح) وعلى الآخر (ملصق) . كما ذكر أن قداح (المدارأة) التى سبق الكلام عليها كانت بيضاء ليس فيها شىء . وذكر أيضاً أنه كان للحضَر والسفر سهمان فيأتون السادن من سَدَنة الأوثان فيقول السادن : « اللهم أيُّهما كان خيرا فأخرِجْه لفلان » . فيرضى بما خرج له .

وذكر ابن الكلبى[2] عند الكلام على «هُبَل» : «وكان فى جوف الكعبة ، قُدَّامَه سبعة أقدح مكتوب فى أولها (صريح) والآخر (ملصق) فإذا شكُّوا فى مولود أهَدوا له هدية ثم ضربوا بالقِداح ، فإن خرج (صريح) ألحقوه ، وإن خرج (ملصق) دفَعوه . وقدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وثلاثة لم تفسَّر لى علاَمَ كانت . فإذا اختصموا فى أمرٍ أو أرادوا سفرا أو عملاً أتوه فاستقسموه بالقِداح عنده ، فما خَرجَ عِملوا به وانتَهوا إليه » .

(١) المحبر ص ٣٣٢ . وانظر نهاية الأرب ٣ : ١١٧ .
(٢) فى الأصنام ص ٢٨ وعنه نقل ياقوت فى (هبل) .

قال : « وعنده ضَرَب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله » . وسنذكر هذا الأمر بتفصيل عند الكلام على العامل الديني .

وذكر أيضاً فى الكلام على ذى الخلصة[١] : « وكانت له ثلاثة أقدح : الآمر ، والناهى ، والمتربص » .

وكان ذو الخلصة بيتاً فى اليمن لخثعم وبجيلة ، فيه نُصُب يُعبَد . ولما قدم جريرُ بن عبد الله البَجَلى اليمنَ ، وكان بذى الخَلَصة رجلٌ يستقسم بالأزلام ، فقيل له : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ها هنا ، فإن قدر عليك ضربَ عنقك . فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال : لتكسرنَّها ولتشهدن ألا إله إلا الله أو لأضربن عنقك ! فكسرها وشهد[٢] .

وقال ابن هشام[٣] : « وكانت عند هبل قداح سبعة كل قدح منها فيه كتاب . قدح فيه (العقل) — أى الدية — إذا اختلفوا فى العقل فعلَى مَن خرج حَمْلُه . وقدح فيه (نعم) للأمر إذا أرادوه يُضرَب به القداح فإن خرج قدحُ نعمْ عملوا به . وقدح فيه (لا) إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح فإن خرج ذلك

---

(١) الأصنام ٤٧ ونقل عنه ياقوت فى (الخلصة) .
(٢) صحيح البخارى فى (غزوة ذى الخلصة) . فتح البارى (٨ : ٥٧) .
(٣) السيرة ٩٧ جوتنجن .

القدح لم يفعلوا ذلك الأمر . وقِدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) ، وقدح فيه (المياه) إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به . وكانوا إذا أرادوا أن يَختِنوا غلاما ، أو يَنكِحوا منكحا ، أو يدفنوا ميتا ، أو شكُّوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل » .

وقال الجاحظ[1] : « واستعملوا فى القداح الآمر ، والناهى ، والمتربص . وهن غير قداح الأيسار » .

وفى صبح الأعشى[2] : « افعل ، لا تفعل ، نعم ، لا ، خذ ، سر ، سريع » . وقال : « وإن كان بين اثنين اختلاف فى حق[3] سمى كل منهما سهما وأجالوا القداح ، فمن خرج سهمُه فالحقُّ له » .

واختلاف الروايات فى ذلك يدلُّنا على أن العرب ما كانوا يلتزِمون فى صناعة الأزلام نهجاً معينا يَقْسِرون عليه أنفسهم ، وإنما كان لكلٍّ كاهن من كُهّانهم ، ولكلٍّ حكَم من حكامهم طريقةٌ خاصة فيما يكتب على أزلامه من الإشارات ، كما يدلُّ على

(١) الحيوان (٣ : ٤٤) .
(٢) صبح الأعشى (١ : ٤٠٢) .
(٣) هذا ماسماه ابن حبيب (المدارأة) ، كما سبق فى ٦٣ .

أنَّ لِكلٍّ قضية من قضايا الاستفتاء أزلاماً خاصةً بها تُناسِبُها وتَنهض لها .

العامل الديني :

كان « هُبَلُ » أعظم صنم لقريش في مكة ، وكان يكون في جوف الكعبة ، وفيه يقول ابن الكلبي (١) : « وكان فيما بلغني من عَقيقٍ أحمر ، على صورة الإنسان ، مكسورَ اليد اليمنى ، أدركَتْه قريشٌ كذلك فجعلوا له يداً من ذهب » . وهو الذي قال له أبو سُفيان بن حَرب حين ظَفِر يوم أُحد :

أعْلِ هبل !

— أي أعل دينك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أعلى وأجل ! !

عند هذا الصنم الجليل القدر لديهم كانت تُوضَع « الأزلام » ، ويقوم الكهان أو السدَنة بإجالتها وإفاضتها لمن يريد الاستقسام ، إعظاماً للأمرِ الذي يبغونه ، فهم يختارون موضعَ القضاء في أقدس مكانٍ لهم ، وإعظاما للحكَمَ الذي يرتضونه ، فإن الذي حكم به هو سادن الكعبة ، أو أحد كهانهم .

---

(١) الأصنام ص ٢٨ .

فكانوا يذهبون إلى « هبل » ، ومعهم (مائة درهم) و (جَزور) ، ويعطونها لصاحب القداح الذى يضرب بها[١] ، ثم يقربون صاحبهم الذى يريدون الحكم فى نسبه إن أرادوا ، ثم يقولون : « يا إلهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرِج الحقَّ فيه ! » ثم يقولون لصاحب القداح : اضربْ ! فيُجيل القداح ويُفيضها ، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطا ، وإن خرج (من غيركم) كان حليفا ، وإن خرج (ملصق) كان على منزلته ، لا نسب له ولا حلف .

وإن استشاروه فى أمر يقتضى (نعم) أو (لا) فخرج (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخّروا الأمر عاماً كاملا ثم أتوا مرة أخرى يَستقسمون بالأزلام[٢] .

بهذا العامل الدينى ، وبهذا الشعور الرُّوحى الوثنى استقسم عبد المطلب بن هاشم مرتين :

١ — فى حفر بئر زمزم[٣] ، حينما أُمِرَ فى منامه عدّةَ مرات بحفرها ، وقام ليقضى ما كُتِب عليه فى منامه ، فحفر فى البئر

---

(١) قال أبو حيان فى تفسيره : « فالمائة للضارب بالقداح ، والجزور ينحر ويؤكل » .

(٢) السيرة ٩٧ — ٩٨ جوتنجن .

(٣) السيرة ٩١ — ٩٧ .

— ولم يكن له من الولد حينئذ إلا الحارث بن عبد المطلب — فلما تمادَى به الحفر وجد فيما حَفَرَ غزالين من ذهبٍ خالص، ووجد أسيافاً قَلَعية وأدراعا، فقالت له قريش: يا عبدَ المطلب، لنا معك فى هذا شركٌ وحق!! قال: لا، ولكن هلم إلى أمرٍ نَصَف بينى و بينكم، نضرب عليها بالقداح. قالوا: وكيف نصنع؟ قال: أجعلُ للكعبة قدحين، ولى قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قِدحاه على شىء كان له، ومن تخلّف قدحاه فلا شىء له. قالوا: أنصفت! فجعلَ قدحين (أصفرين) للكعبة، وقدحين (أسودين) لعبد المطلب، وقدحين (أبيضين) لقريش[1]، ثم أعطوا تلك القداحَ لصاحب القداح التى يضرب بها عند «هُبَل»، فضربها على الغزالين فخرج (الأصفران) فكانا من نصيب الكعبة، ثم ضربها أخرى على الأسياف والدروع فخرج (الأسودان) فكانا من نصيب عبد المطلب، وتخلَّف قدحا قريشٍ لم يظفرا بشىء. فضربَ عبدُ المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب، فأرضَى بذلك نفسَه وشعوره الدينىَّ العميق، وحسَمَ الخلاف بينه و بين قومه بما حكم به «هبل»، وهو الذى لا يُردُّ له قضاء!!

---

(١) هذا دليل آخر على أن أزلام الاستقسام لم تكن ذات نمط واحد، أو نظام واحد.

٢ — والمرة الثانية حينما نَذَر حين لقَى من قريشٍ ما لقى عند حفر بئر زمزم ما كان من استخفافهم به لقلة ولده(١) : لئن ولد له عشرة نفرٍ ثم بلغوا معه حتَّى يمنعوه لينحرن أحدَهم لله عند الكعبة ! ! فلما توافَى بنوه عشرةً وعرف أنّهم سيمنعونه جَمَعهم ثم أخبرهم بنَذْره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كلُّ رجل منكم قِدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على « هُبَل » فى جوف الكعبة ، وكان منصوباً على بئر يُجمَع فيها ما يهدى إلى الكعبة . فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند « هبل » يدعو اللهَ جاهداً ، ثم ضرب صاحبُ القداح فخرج القدحُ على (عبد الله) وهو أعزُّ ولدِه عليه ، فأخذ عبدُ المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة(٢) ليذبحه ، فقامت إليه قريشٌ من أنديتها ، وكذلك قام بنوه ، فقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتَّى تعذر فيه ! لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتَّى يذبحه ، فما بقاء الناسِ على هذا ؟ !

---

(١) سبق القول أنه لم يكن له من ولده عنـد حفر زمزم إلا ولد واحد ، هو الحارث .

(٢) إساف ونائلة : صنمان كانا بمكة ، جعل أحدهما بلصق البيت والآخر بزمزم ، وكان ينحر عندهما ، وكانت الجاهلية تتمسح بهما . ياقوت .

وكان أن لجئوا إلى عرّافة فى « خيبر » يسألونها فى ذلك ، فقالت : كم الديةُ فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرِّبوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجتْ على صاحبكم فزِيدُوا من الإبل حتَّى يرضى ربُّكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضِىَ ربكم ونجا صاحبكم !

فرجعوا إلى مكة ، وضربوا بالقداح بين عبد الله وبين عشرٍ من الإبل ، فخرج القدح على (عبدالله) ! فزادوا عشراً وضربوا ، ثم زادوا عشراً وعشراً حتى بلغت مائة ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب . فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ! فضربوا ثلاث مرات توثيقاً للأمر ، كلّ ذلك يخرج القِدحُ على الإبل المائة . فنُحِرت ثم تركت لا يُصَدّ عنها إنسانٌ ولا يمنع .

فهاتان الحادثتان تدلّان على مقدار خضوع سادة العرب وأشرافِها لحُكْم الأزلام ، ومَبلغِ اضطرارِهم وتقديسهم لأحكامها .

تقديس الأزلام :

و بلغَ من تقديسهم للأزلام أنهم جعلوا فى البيت الحرام صورةً لإبراهيم عليه السلام ، وفى يده الأزلامُ التى يستقسم بها[١] .

وفى حديث فتح مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيتَ فرأى إبراهيم و إسماعيل بأيديهما الأزلام[٢] .

قال ابن هشام[٣] : « وحدَّثنى بعضُ أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلَ البيتَ يوم الفتح فرأى فيه صُوَرَ الملائكة وغيرِهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوَّراً فى يده الأزلامُ يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخَنا يستقسم بالأزلام ؟ ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ ! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مُسْلِماً وما كان من المشركين . ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمِست » .

وفى مسند أحمد[٤] برقم ٣٠٩٣ عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكةَ أبى أن يدخُلَ البيتَ وفيه الآلهة

---

(١) انظر السيرة ٨٢١ .

(٢) اللسان (قسم) .

(٣) السيرة ٨٢١ — ٨٢٢ .

(٤) الجزء الخامس بتحقيق الأستاذ الجليل أحمد محمد شاكر . وانظر أيضاً رقم ٣٤٥٥ من المسند .

فأمر بها فأُخرجتْ ، فأُخرجَ صورةُ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتَلَهم الله ! أما والله لقد عَلِموا ما اقتسما بها قطّ » .

الأزلام فى التاريخ الدينى القديم

نصَّ القرآنُ الكريم على حادثين اثنين كان للأُزلام فيهما نصيب ، ولكنها لم تكن على ما كانت عليه عند العرب من التّقديس الوثنى ، بل كانت بمثابة القرعة التى سيأتى الكلام عليها :

الحادث الأول أشار إليه الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » آل عمران ٤٤ .

والحادث الثانى أشار إليه فى قصة يونس : « فسَاهَمَ فكان من الْمُدْحَضِين » . الصافات ١٤١ .

١ — أما الأول فهو ما كان من أمر زكرياء عليه السلام . روى أن حَنَّة حين ولدت مريمَ لفَّتْها فى خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون — وهم فى بيت المقدس كالحجَبة فى الكعبة — فقالت لهم : دُونكم هذه النَّذيرة !

فتنافسوا فيها لأنها كانت بنتَ إمامهم وصاحبَ قربانهم ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحقُّ بها ، عندى خالتها . قالوا : لا حتَّى نقترع عليها . فانطلقوا وكانوا سبعةً وعشرين إلى نهر الأردنّ فألقوا فيه (أقلامهم) ، فارتفع قلمُ زكريا ورسَبت أقلامهم ، فتكفَّلَها .

واختلف المفسِّرون فى هـذه الأقلام فقال بعضهم : هى أقلام الـكتابة كانوا يكتبون بها التوراة ، فاختاروها للقرعة تبرّكاً بها . وقال بعضهم : الأقلام هنا الأزلام ، وهى القداح .

وقال أبو مسلم : كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر . وهو شبيه بأمر القداح التى يتقاسم بها الجزور[1] .

وقال ابن قتيبة[2] : وكانوا تشاحُّوا فى كفالتها ، فضربوا بالقداح ، وهى الأقلام ، فخرج قدَح زكريا فـكفلها .

٢ — وأما الثانى فما كان أمر السفينة التى ركب فيها يونسُ عليه السلام فِراراً من قومه ، حين ذهب مُغاضِباً ، فلما

---

(١) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٤٢ ، ٤٥٨ — ٤٥٩) وكذا تفسير الزمخشرى (١ : ١٤٣) .
(٢) الميسر والقداح ٣٨ .

أُبعدت السفينة فى البحر ويونسُ فيها ركَدَت ، فقال أهلها : إن فيها لَمَنْ يحبسُ الله السفينةَ بسببه ، فلنقترعْ . فأخذوا لكلٍّ منهم سهماً على أنّ من طفا سهمه فهو ، ومن غرِق سهمه فليس إياه . فطفا سهمُ يونس ، ففعلوا ذلك ثلاثاً تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطْرحوه ، فألقى بنفسه فالتقمه الحوت[1] .

وقصة يونس هذه — وتسمِّيه كتب العهد القديم « يونان » — مذكورة بتفصيل فى سفر « يُونان » ، جاء فى الأصحاح الأوّل :

« فقام يونانُ ليهرب إلى « تَرشيش » من وجه الرب ، فنزل إلى يافا ووجد سفينةً ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهبَ معهم إلى ترشيشَ من وجه الرب . فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر ، فحدث نوءٌ عظيم فى البحر حتى كادت السفينةُ تنكسر . فخافَ الملاحون وصَرَخوا كل واحد إلى إلٰهه ، وطرحوا الأمتعة التى فى السفينة إلى البحر ليخفِّفوا عنهم . وأما يونانُ فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوماً ثقيلا . فجاء إليه رئيسُ النوتية وقال له : مالكَ نائماً . قم اصرخْ إلى إلٰهك عسى أن يفتكر الإلٰهُ فينا فلا نهلك . وقال

(١) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٥٩) .

بعضهم لبعض : هلم نلقى قُرَعًا لنعرف بسبب مَن هذه البلية . فألقوا قُرَعاً فوقعت القرعة على يونان . فقالوا له : أخبرنا بسبب مَن هذه المصيبة علينا . ما هو عملك ومن أين أتيت ؟ ما هى أرضك ومن أى شعبٍ أنت ؟ فقال لهم : أنا عبرانى وأنا خائف من الرب إله السماء الذى صنع البر والبحر . فخاف الرجال خوفاً عظيما وقالوا له : ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا ، لأن البحرَ كان يزداد اضطرابا . فقال لهم : خذونى واطْرحونى فى البحر فيسكن البحر عنكم لأننى عالمٌ أنه بسببى هذا النَّوْء العظيم عليكم » .. « ثم أخذوا يونان وطرحوه فى البحر فوقف البحرُ عن هَيَجانه ، فخاف الرجال من الرب خوفا عظيما ، وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذوراً . وأما الربُّ فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان ، فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثةَ أيام وثلاث ليال » .

و بعد أن يسرد سفر (يونان) صلوات (يونان) فى جوف الحوت يقول : « وأمر الرب الحوتَ فقذف يونان إلى البر » .

فهاتان القصتان على مافيهما من حمل المفسرين الأقلامَ فيهما والمساهمة على معنى أزلام الجاهلية ، لاريب أن ما فيهما من صنيع هو بعيدٌ كلَّ البعد عن صنيع أهل الجاهلية فيما كانوا يجعلون لتلك الأزلام من تقديسٍ ، ومن شرائطَ دينية وتقاليد

خاصة ، وإنما هاتان ضرب من (القرعة) لا يزيدان عن تلك شيئاً ولا ينقصان شيئاً .

والنص الذى سقته من سفر يونان مؤيِّدٌ أنها قرعة بعيدة عن الاستقسام الوثنى .

التمرد على الأزلام :

وقد بدت ظاهرة من ظواهر التمرد على تلك الأحكام الدينية :

١ — فيما رواه ابن الكلبى[1] من أن امرأ القيس بن حجر أقبل يريد الغارة على بنى أسد ، فمر بذى الخلصة — وكان صنما بتبالة[2] — وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الآمر ، والناهى ، والمتربص . فاستقسم عنده ثلاث مرات فخرج (الناهى) فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم

---

(١) فى كتاب الأصنام ص٤٧ وعنه ياقوت فى معجم البلدان (الخلصة) .

(٢) تبالة : واد مجاور لوادى بيشة ، من أرض تهامة فى طريق اليمن . وفى صحيح الأخبار للشيخ محمد بن بليهد (١ : ٦٨) : « وتبالة باقية بهذا الاسم إلى يومنا هذا على شاطئ بيشة الشمالى » . وقال ابن حبيب فى المحبر ٣١٧ عند الكلام على ذى الخلصة : « وهو اليوم بيت قصار فيما أخبرت » . وقال المبرد فيما نقله عنه ياقوت : « موضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات » .

وقال : «عضضت بـ ... أبيك ! لو كان أبوك قتل ماعوَّقتَنى ! »

ثم قال فى ذلك :

لو كنت ياذا الخَلَص الموتورا مثلى وكان شيخُك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم غزا بنى أسدٍ فظفِر بهم .

قال ابن الكلبى : « فلم يُستقسَمْ عنده بشىء حتَّى جاء الله بالإسلام ، فكان امرؤ القيس أوّلَ من أخفره » .

٢ — وأنشد أبو عبيدة قول الشاعر الجاهلى :

* ولم أَقسِمْ فيرُبثَنى القَسَمْ[١] *

ففهم أبو عبيدٍ أن هذا تحرُّج منه وتصوُّن .

قال أبو حاتم الرازى[٢] : « هذا قول أبى عبيد ، وقد غلط فى هذا البيت ، وذلك أن قائله لم يقل ذلك يريد التحرج ، وإنما عنى أنه جرىء على الأمور ، فإذا أراد غزواً لم يستقسم بالأزلام فيخرج الناهى ويثبطه عن الغزو ، ولكنه يمضى لوجهه لا يهوله الغزو ولا يستقسم من أجله » .

فهذا نصٌّ آخر من نصوص التمرد على الأزلام وإهدار

---

(١) ربثه عن الشى يربثه : حبسه .

(٢) فى الزينة ، مخطوطة الشيخ محمد الهمدانى ٣٧٧ — ٣٧٨ .

هَيْبتها واللجوء إلى أحكامها . يقول : إنه ليس كهؤلاء المفكـرين الذين يجعلون للأزلام سُلطاناً عليهم فيما يأتون من أمر أو يتركون .

الأزلام المدنية :

لم يكن نظامُ الاستقسام بالأزلام نظاماً موحداً يظلّه ظلُّ الوثنية ، بل كان إلى جانب هذا النظام الدينى نظامٌ آخر مدنى يلمحه الباحثُ من ثنايا أخبار العرب .

١ — جاء فى اللسان [١] تعليقاً على قول سراقة : « فأخرجْتُ منها الأزلام [٢] » ، قال : « وهى القداح التى كانت فى الجاهلية ، كان الرجلُ منهم يضعها فى وِعاء له فإذا أراد سفراً أو رواحاً أو أمراً مهمًّا أدخل يدَه فأخرج منها زَلَما ، فإن خرج الأمرُ مضى لشأنه ، وإنْ خرج النهى كف عنه ولم يفعله » .

٢ — وجاء فيه أيضاً : « وربّما كان مع الرجل زلمان وَضَعهما فى قِرابه ، فإذا أراد الاستقسامَ أخرج أحدَهما » .

٣ — وقال أبو حيان [٣] : « وأزلام العرب ثلاثة أنواع : أحدها الثلاثة التى يتّخذها كل إنسانٍ لنفسه ، فى أحدها (افعلْ)

---

(١) لسان العرب مادة (زلم) .
(٢) انظر ما سبق فى ٥٥ س ١١ .
(٣) فى تفسيره (٣ : ٤٢٤) .

وفى الآخر (لا تفعل) ، والثالث غفل ، فيجعلها فى خريطة ، فإذا أراد فعل شىء أدخَل يده فى الخريطة منسابة وائتمر بما خرج له من الآمر أو الناهى . وإن خرج الغفل أعاد الضرب .

ثم ذكر النوع الثانى ، وهى القداح السبعة التى كانت عند « هبل » ، والنوعَ الثالث وهى قداح الميسر .

علة تحريم الاستقسام بالأزلام :

أما الاستقسام بها على الوجه الدينى المتقدم فلم يختلف العلماء فى تحريمه وأنه فسق ، لأنهم كانوا يلجئون إلى الأنصاب و بيوت الأصنام ، وكانوا يظنون أنها هى التى تخرج لهم فى القِدح ما يمتثلونه[1] .

قال الزمخشرى[2] : « فإن قلتَ : لم كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام ليتعرف الحال فسقاً ؟ قلتُ : لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب ، وقال : لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله ، واعتقادٌ أن إليه طريقاً إلى استنباطه . وقوله أمرنى ربى ونهانى ربى افتراء على الله ، ومايُدريه أنه أمره أو نهاه . والكهنة والمنجمون بهذه المثابة . وإن كان

(١) الميسر والقداح ٤١ .
(٢) الكشاف (١ : ٢٤٤) .

أراد بالرب الصنم ـ فقد رُوِى أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم ـ فأمره ظاهر » .

وأما الاستقسام بها على الوجه الآخر الذى لا تدخل فيه الأصنام ولا تستشار الكهان فأمر اختلف فيه العلماء كما اختلفوا فى طلب معرفة الغيب بأى وسيلة من الوسائل[١] .

قال الآلوسى[٢] : « واستشكل تحريم ما ذكر بأنه من جملة التفاؤل ، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل » .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى الفخر الرازى (٣ : ٣٥٧) .
(٢) بلوغ الأرب (٣ : ١٦٨) .

٣

القُرْعَة

القرعة — القرعة فى الإسلام — القرعة فى الكتب الدينية القديمة — القرعة عند عرب الجاهلية — ضروب من القرعة المعاصرة — الاستخارة

القرعة :

لفظها بضم القاف ، واشتقاقها من القَرْع بمعنى الضرب . قال ابن فارس [١] : « والإقراع والمقارعة هى المساهمة ، وسميت بذلك لأنها شىء كأنه يضرب » .

القرعة فى الإسلام :

والقرعة قديمة عند العرب ، ولها طرق شتى [٢] :

١ — فعن سعيد بن المسيّب أنه كان يأخذ الخواتيم فيضعها فى كمه ، فمن أخرج أولاً فهو القارع .

٢ — وقال أبو داود : قلت لأبى عبد الله [٣] فى القرعة

(١) فى مقاييس اللغة (٥ : ٧٢) .

(٢) انظر الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، روى عنه من أصحاب الحديث البخارى ، ومسلم ، وأبو داود وغيرهم . تهذيب التهذيب .

يكتبون رقاعا ؟ قال : إن شاءوا رقاعا ، وإن شاءوا خواتيمهم .

٣ — وعن الأثرم[1] ، قلت لأبى عبدالله : كيف القرعة ؟ فقال : سعيد بن جبير يقول بالخواتيم أقرع بين اثنين فى ثوب ، فأخرِج خاتَمَ هذا وخاتم هذا . قال : ثم يخرجون الخواتيم ثم ترفع إلى رجلٍ فيُخرج منها واحدا . قلت لأبى عبد الله : فإن مالـكا يقول : تكتب رِقاعاً وتُجْعَل فى طين . قال : وهذا أيضا . وقيل لأبى عبد الله : إن الناس يقولون : القرعة هكذا ، يضم الرجل أصابعه الثلاث ثم يفتحها . فأنكرها وقال : ليست هكذا .

ومما جاء من أخبار القرعة فى الإسلام :

١ — ما جاء فى صحيح البخارى (فى حديث الإفك) ، عن عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيتُهنَّ خرج سهمُها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه » . قالت عائشة : « فأقرعَ بيننا فى غزوةٍ غزاها فخرج فيها سهمى ، فخرجت معه بعد أن أنزل الحجاب » .

٢ — حينما هاجر المهاجرون إلى المدينة اقترع الأنصارُ على سُـكناهم وإيوائهم . وفى ذلك حديثُ أمِّ العلاء الأنصارية

---

(١) أبو بكر الأثرم البصرى ، واسمه حكيم ، أحد تلاميـذ أحمد . ترجم له فى تهذيب التهذيب .

« اقتسم المهاجرون قرعةً فطار لنا عثمان بن مظعونٍ فأنزلناه فى بيوتنا »[١] .

٣ — وعقد البخارى فى صحيحه بابا سماه (باب الاستهام فى الأذان) ، قال فيه : « ويُذكَر أنَّ قوما اختلفوا فى الأذان ، فأقرعَ بينهم سعد » .

قال ابن حجر[٢] : « قال الخطابى وغيره : قيل له الاستهام لأنهم كانوا يكتبون أسماءهم على سهام إذا اختلفوا فى الشىء ، فمن خرج سهمُه غَلَب » .

وكان من خبر هذا الأذَان الذى حدَثَتْ فيه القرعة ، ما رواه البيهقى[٣] عن ابن شُبرمة قال : « تشاجَرَ الناس فى الأذان بالقادسية فاختصموا إلى سعدٍ فأقرع بينهم » . وكان المسلمون فى الصدر الأول يعدُّون الأذان أمراً خطيراً يسعَون إليه ، ويحفظون فى ذلك ما رواه أبو هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم[٤] : « لو يعلم الناسُ ما فى النداء والصفِّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» والمراد بالنداء فى هذا الحديث هو الأذان .

وروى الطبرى فى تاريخه[٥] حادث هذا الأذان رواية عن

---

(١) فتح البارى (٣ : ٩٢) . (٢) فى فتح البارى (٢ : ٩٧) .
(٣) السنن الكبرى (١ : ٤٢٩) .
(٤) رواه البخارى فى باب الأذان .
(٥) ليلة القادسية فى حوادث سنة ١٤ .

عبد الله بن شبرمة عن شقيق قال : « اقتحمنا القادسية صدرَ النهار ، فتراجعنا وقد أتى الصلاةُ ، وقد أُصيب المؤذِّن ، فتشاحَّ الناس فى الأذان حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف ، فأقرع سعدٌ بينهم ، فخرج سهمُ رجلٍ فأذّن » . وسعد هذا هو سعد بن أبى وقاص .

٤ — وقال ابن سيرين[١] حين بلغه أن عمر بن عبد العزيز أقرعَ بين الفُطُم[٢] : « ما كنت أرى هذا إلا من الاستقسام بالأزلام » .

٥ — وذكر المقريزى[٣] أن أبا عبد الله الشيعىّ حين رحل مع حُجّاج كتامة من مصر إلى بلاد المغرب وقاربوا بِلادهم « لقيهم رجالٌ من الشيعة ، فأخبروهم بخبَره ، فرغبوا فى نزوله عندهم و (اقترعوا) فيمن يضيفه منهم » .

فأنت ترى أن القرعة تمتُّ بسببٍ إلى الاستقسام بالأزلام ، ولكنّها لا تمتُّ إليه بسبب الحرمة ، إلا أن يترتَّبَ عليها ضَياع حقٍّ مشروعٍ ، أو تطاوُلٍ إلى معرفة الغيب وادّعائه . أما إذا جعلت وسيلةً لفضّ نزاع ، أو تخَلٍّ عن مسئولية المحاباة والإيثار ،

(١) الميسر والقداح ٤٠ — ٤١ .

(٢) جمع فطيم ، وهو من يفطم عن الرضاع .

(٣) اتعاظ الحنفاء ٥٧ — ٧٦ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال .

أو لاستغلال البراءة عن الميول الشخصية ، فلا ريبَ أنها فى تلك الحال تكون أمراً مستحسنا .

القرعة فى الكتب الدينية القديمة :

قد مرّ من طرق القرعة ما كان من أمر زكرياء و يونس عليهما السلام ، وكان فى الآيتين الكريمتين اللتين وردتا بشأنهما حجّةٌ من حجج الأئمة الأربعة فى تجويز القرعة ، بناء على القاعدة التى تقول : « شرع من قبلنا شرع لنا » .

وكانت القرعة عند الإسرائيليين بمثابة استدعاء للأمر الإلهى فى القضايا التى تعَرِض لهم . جاء فى سفر الأمثال (١٦ : ٣٣) : « القرعة تُلقَى فى الحِضْن ومن الربِّ حُكْمُها » . وهذه الكلمة تسجِّل أيضاً صورةً من صور مزاولة القرعة ، التى تُلقَى بها القرعة فى أحضان المتقارعين .

فكان الإسرائيليون يلجئون إلى استفتاء القرعة فى كثير من القضايا .

١ — منها تبيين المذنب والمخطئ إذا اختلفوا فيه : « فقال شَاوُل : ألقوا بينى و بين يُوناتانُ ابنى . فأُخِذَ يُوناتان » . صموئيل الأول (١٤ : ٤٢) .

٢ — وتقسيم البلاد المقدسة بين الأسباط : « إنَّما بالقرعة تقسم الأرض حسب أسماء أسباط آبائهم . يَملِكون حسبَ القرعة . يقسم نصيبهُم بين كثير وقليل » . العدد (٢٦ : ٥٥ ، ٥٦) وانظر أيضا سفر يشوع الأصحاحات ١٣ — ١٨ .

٣ — وفى مزاولة الواجبات الدينية . جاء فى الأصحاح الأول من إنجيل لوقا عند الكلام على زكريا : « فبينما هو يكهن فى نَوبة فرقتِهِ أمام الله حسبَ عادةِ الكهنوت أصابته القرعةُ أن يدخل إلى هَيكل الرب و يبخّر » .

٤ — واختيار الحيوان للذبيحة المقدسة : « ويلقى هارونُ على التيسين قرعتين : قرعة للرب وقرعة لعَزَازِيل . ويقرب هارون التيسَ الذى خرجت عليه القرعة للرب و يعمله ذبيحة » . لاويين (١٦ : ٨ — ٩) .

وقد استعملها أيضاً (أعداء) الإسرائيليين ، جاء فى سفر (أستير) أن هامان الوزير أراد أن يهلك اليهود ، فكان يصطنع القرعةَ لكى يعرف الوقتَ المناسب للفتك بهم فى جميع أقطار الأرض : « فى الشهر الأول أى شهر نيسان فى السنة الثانية عشرة للملك أحشويروش كانوا يلقون « فُورَا[١] »

---

(١) لا تزال هذه الكلمة العبرية سارية فى العامية المصرية يستعملها لاعبو الورق ، يجعلونها للفائز فى اللعبة .

أى قرعة أمام هامان من يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر إلى الثانى عشر ، أى شهر أذار » . وقد استمرت هـذه القرعة سنة كاملة ، ولـكن هامان أخفق فى سعيه لدى الملك ، وذلك بالجهود المضادّة التى بذلتها الملـكة أستير اليهودية وابن عمها مردخاى اليهودى اللذين تمكنا من إحفاظ الملك على وزيره هامان حتى صـلبه فى اليوم الثالث عشر من شهر أذار ، فاتخذ اليهود يومى ١٤ ، ١٥ من هذا الشهر عيداً سموه « عيـد الفوريم » جمع (فورا) وهى القرعة التى كان يصطنعها هامان لتعيين موعد الإبادة .

واستعملها المسيحيون أيضاً :

١ — فبها انتخب متياس : « ثم ألقوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس ، فحسب مع الأحـد عشر رسولا » . أعمال (١ : ٢٦) .

٢ — واقتسمت ثياب المسيح عليه السـلام « اقتسموا ثيابه مقترعين عليها » إنجيل متَّى (٢٧ : ٣٥) ومرقس (١٥ : ٢٤) ولوقا (٢٣ : ٢٤) والمزامير (٢٢ : ١٨) .

القرعة عند عرب الجاهلية :

واستعملها عرب الجاهلية أيضاً :

١ — فى اقتسام البلاد ، كما فعل الإسرائيليون .

قال أبو عبيدة[١] : لما دخلت بنو عامر ومن معهم من عبس وغيرهم جبل جبلة ، من خوفهم من الملك النعمان وعساكر كسرى ، اقتسموا شعوبه بالقداح ، فولجت بارق وبنو نمير الخليف . والخَليف : الطريق الذى بين الشعبين يشبه الزقاق ، لأن سهمهم تخلّف .

وجَبَلة هذه هضْبة حمراء بنجدٍ بين الشرف والشُّرَيف . وكان يوم جبلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة ، وقبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بسبع عشرة سنة[٢] .

٢ — وكذلك فى اقتسام النساء عند السَّبى . فكانوا إذا ظفروا بأعدائهم ، واستولوا على مَغانم الحرب من أسلاب ، وجدوا السبايا ، وهُنّ موضع نزاع كبير ، ورغباتٍ متضاربة ، فلم يكن لهم فى ذلك إلا أن يقتسموهن بالاقتراع ، فإنه الوسيلة المثلى لفض هذا النزاع .

قال ياقوت عند الكلام على مكة[٣] : ومن شرفها أنها

---

(١) معجم البلدان (رسم الخليف) .
(٢) هذا ما ذكره ياقوت فى (رسم جبلة) . وذكر صاحب العقد (٥ : ١٤١) أنه كان قبل الإسلام بأربعين سنة ، وهو عام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٣) معجم البلدان (٨ : ١٣٧) .

كانت لَقَاحًا لا تَدِين لدِين الملوك ، ثم لم يؤدّ أهلُها إتاوةً ، ولا مَلَكها ملكٌ قط من سائر البلدان ... وكان أهله — يعنى أهل البيت — آمنين يَغزُون الناس ولا يُغزَون ، ويَسبُون ولا يُسبَون ، ولم تُسْبَ قرشيّةٌ قط فتُوطَأَ قَهْرًا ، (ولا تُجالُ عليها السِّهام) » .

ضروب من القرعة المعاصرة :

١ — وكانت القرعة إلى عهد قريب تُطلَق على اختيار الرجال للجندية ، وكانت إدارة التَّجنيد لجيشنا المصرى تسمى (إدارة القرعة) ، ولا تزال هذه التسمية غالبةً بين الشَّعب لم تمح التسمية القديمة . وبسؤالى لبعض كبار رجال الجيش أجاب بأن ذلك لا يعدو أن يكون مجازا فى التسمية ، وأنه لم تكن ثمّةَ قرعةٌ بالمعنى الحقيقى ، وإنما هى اختيارٌ بحتٌ وترشيح للصَّلاحِيَة ، كان فيما مضى مبنيا على قواعد ساذجة ، ثم أضحى اليومَ مقيدا بشروطٍ دقيقة لابد مِن توافُرها فى أفراد الجيش النظامى .

٢ — ومن وسائل القرعة أن تقطَّع أوراق متساوية القدر والنوع واللون ، ثم يعطى كلُّ واحد من المتقارِعين واحدة منها

فيكتب فيها اسمه ، ثم تُطوَى كلُّها على غِرار واحد ، فإما أن تجعل مربعة ، وإما أن تلفّ لفا أسطوانيا ، بحيث لا يبدو من إحداها ما يدلُّ على صاحبها ، ثم تُلقى فى وعاء ، وقد يكون ذلك الوعاء قلنسوةَ أحد المتقارعين ، ثم تجلجل كما تجلجل القداح ، ثم تخرج إحداها ؛ فمن خرجت باسمه فهو الفائز .

٣ — ومن وسائل القرعة فى بدء الألعاب الرياضية أن يختار كل واحد من الفريقين أحد وجهى الدرهم : الصورة أو الكتابة ، ثم يُلقِي الحَكَم هذا الدرهم فأىُّ الوجهين ظَهَرَ حكمَ لصاحبه أن يكون هو البادئ باللعب .

هذه هى أشهر ضروب القرعة المعاصرة فى مصر اليوم ، ولا ريب أن هناك ضروبا أخرى منها ، يزاولها أقوامٌ آخرون فى شتَّى بلاد الله ، كلٌّ يجرى على مذهبه وطريقته فى ذلك .

الاستخارة :

ومما يُلحَق بالاستقسام لطلب الغيب ، أو للتفاؤل واستشارة قُوَى الغيب للإقدام والإحجام ، ما أطلق عليه المتأخّرون لفظ « الاستخارة » .

ولفظ « الاستخارة » عربى أصيل . قال ابن الأثير فى النهاية :

« والاستخارة : طلب الخِيَرَة فى الشيء ، وهو استفعال منه ، يقال : استخرِ الله يَخِرْ لك » . وفى الحديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة فى كل شى » . وفيه أيضاً دعاء الاستخارة ، وهو « اللهمَّ خِرْ لى » ، أى اختر لى خير الأمرين ، واجعل لى الخِيَرَة فيه .

وفى الأدب المفرد للبخارى[1] عن جابر قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كالسورة من القرآن . إذا هم بالأمر فليركع ركعتين ثم يقول : اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تَقدرُ ولا أقْدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنتَ تعلم هـذا الأمرَ خيراً لى فى دينى ومعَاشى وعاقبة أمرى — أو قال : فى عاجل أمرى وآجله — فاقدُرْهُ لى . وإن كنت تعلم أن هـذا الأمرَ شرٌّ لى فى دينى ومعَاشى وعاقبة أمرى — أو قال : عاجل أمرى وآجله — فاصرِفْه عنى واصرفنى عنه ، واقدُر لى الخير حيث كان ، ثم رَضِّنى[2] . ويسمِّى حاجته » .

---

(١) الأدب المفرد ١٠٣ — ١٠٤ طبع المطبعة التازية . وانظر أيضاً فتح البارى (٣ : ١١/٤٠ : ١٣/١٥٧ : ٣١٨)

(٢) رضنى ، من الترضية . ابن حجر : «وفى رواية قتيبة : ثم أرضنى به ، أى اجعلنى به راضياً » .

ولا ريب أن معنى هذه الاستخارة أن يستلهم المستخيرُ الله ليهديَه إلى خير النَّجْدَين ، ويأخذَ بيده إلى أقوم الطريقَين . وليس فى هذه الاستخارة لجوءٌ إلى غير الله ، وليس فيها توسُّلٌ بغيره لمعرفة الخير . ولم يُؤْثَرْ عن السلف الصالح استخارةٌ بغير معنى دعاء الله عز وجل أن يوفّق للخير .

ولكن هذه التسمية أُطلِقَتْ فيما بعد على ضروبٍ من الاستشارة أشهرها :

١ — استخارة المصحف ، بأن يفتح المستخير المصحفَ ليرى فيه ما يدلُّه على الإقدام أو الإحجام ، أو ليستبشر به أو يتفاءَلَ بقراءة أوّلِ ما يظهر له منه عند الفتح .

ويسجل التاريخ خبراً معزوًّا إلى الوليد بن عبد الملك — وكان فيما يذكر المؤرّخون صاحبَ فِسق وفجور — فيزعمون[1] أنه أخذ المصحفَ يوماً وفتحه ، فأوّل ما طلع له : «واستَفْتَحُوا وخابَ كلُّ جَبّارٍ عَنِيد» . فقال : أتوعدنى ؟! ثم علّقه ولا زال يضربُه بالنُّشَّاب حتّى خرّقَه ومزّقه ، وهو ينشد :

أتوعِدُ كلَّ جبارٍ عنيد ... فهأنذاك جبّارٌ عنيدُ
إذا لاقيتَ ربكَ يومَ حشْرٍ ... فقل يا ربِّ مزّقنى الوليدُ

(١) النجوم الزاهرة (١ : ٢٩٨) فى حوادث سنة ١٢٦ .

ومع شكِّ بعض المؤرّخين فى هذه الرواية فإنها لا تدلُّ بيقينٍ أنه فتح المصحف ليستَخِيرَ به أو يستقسم ، فليس فى نصِّها ما يقطع بذلك أو يرجّحه .

ومما يجدر ذكره أن « الاستفتاح » فى الآية الكريمة لا يمتُّ بسبب إلى « فتح المصحف » بل المراد بالاستفتاح فى الآية هو طلب النُّصرة . وفى الحديث : « إنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين » ، أى يستنصر بهم . أو المراد به طلَب القَضاء ، كما فى قوله تعالى : « فافتَحْ بينى و بينهم فَتْحًا » ، أى احكُمْ حكما .

٢ — ومن ضروب الاستخارة استعمال « المِسْبحة » ، بأن يُجرِىَ المستخيرُ يدَه على حبات المِسبحة ثم يقف بأصابع إحدى يديه عند واحدةٍ منها ، ثم يحرك أصابع اليد الأخرى من حيث وقفَ إلى رأس المِسبَحة ، ويقرأ على حبّاتها بالتوالى (الله . محمد . على . أبو بكر . أبو جهل) فحيث انتهى العدُّ إلى رأس المسبحة كان ما تشير به الاستخارة ، فخير الحظوظ أن ينتهى العدُّ إلى الكلمة الأولى ، ثم التى تليها إلى (أبى بكر) ، ولكنَّها إذا وقفت عند أبى جهل كان فى ذلك الشرُّ المستطير ، والأَخْذُ الوبيل .

* * *

هذا هو الميسر وأشباهُه ، وتلك هى الأزلام وأشـباهها ، بسَطت القول فيهما وأردت بذلك فيما أردت أن أذكر تأصيل « الميسر » ، وأنَّه داء صاحب البشريَّة منذُ عهد طويل ، وأن أقول إن الوقتَ قد حان للقضاء عليه فى هذه العهود الجديدة التى تحاول أن تهزم الشرَّ والفساد ، وأن تنصرَ الأخلاقَ الفاضلة والمثلَ العليا .

وأما بعد فإنَّ القول ليس بحاجة إلى أن يُعاد ، وأن يقال إن الميسر هو الشرُّ الغالب فيما كنا نرى من تهافت بعض أصحاب السلطان فيما مضى على اغتصاب الأموال واحتجان الحقوق ، والتسلُّل إلى اقتناص الأبيض والأصفر من ثنايا الرشوة ومكامن الاستغلال الدنىء . فلَنَنْهَضِ عليه فى حزمٍ و إصرار ، ولنعلمْ أننا نبنى بذلك صرحًا عاليا سامقا من صروح الاستقامة ، ونهدم بذلك جبّارًا مارِداً من جبابرة الفساد والطغيان !!

« إنَّ هذا القرآنَ يهْدِى لِلَّتى هِىَ أقْوَمُ ، و يبشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجراً كَبِيراً » .

الفهـــارس

(ا) منهج البحث

(ب) فهرس الأعلام

(ح) فهرس البلدان والأماكن ونحوها

(ى) فهرس القوافى

(هـ) المراجع

اتعاظ الحنفاء للمقريزى ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال
الأدب المفرد ، للبخارى ، طبع المطبعة التازية
الأصنام ، لابن الكلبى ، طبع دار الكتب المصرية
الأغانى ، لأبى الفرج ، طبع الساسى
إنجيل لوقا ، ومتى ، ومرقس
بلوغ الأرب للآلوسى ، الطبعة الثانية
تاريخ الطبرى ، طبع الحسينية
تفسير البقاعى ، مخطوط
« أبى حيان ، طبع السعادة
« الفخر الرازى ، طبع الحسينية
ثمار القلوب ، للثعالبى
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون
خزانة الأدب ، للبغدادى ، طبع بولاق
ديوان امرئ القيس ، طبع هندية
« الحطيئة ، طبع التقدم
« طرفة ، طبع قازان
« النابغة ، من مجموع خمسة دواوين
الزينة ، لأبى حاتم الرازى ، مخطوط
السنن الكبرى ، للبيهقى ، حيدر أباد ١٣٤٤
السيرة لابن هشام ، طبع جوتنجن
شرح المعلقات للأنبارى ، مخطوطة دار الكتب
« « للتبريزى ، طبع السلفية ١٣٤٣
« « للزوزنى ، طبع السعادة ١٣٤٠
« المفضليات ، للأنبارى

صبح الأعشى ، للقلقشندى ، دار الكتب
صحيح الأخبار ، لمحمد بن بليهد ، الطبعة الأولى
صحيح البخارى ، طبع بولاق
الطرق الحكمية ، لابن القيم ، طبع المؤيد ١٣١٧
فتح البارى ، لابن حجر ، طبع بولاق
كتب العهد القديم
الكشاف للزمخشرى ، طبع البهية
مجمع الأمثال ، للميدانى ، طبع البهية ١٣٤٢
محاضرات الراغب الأصفهانى ، طبع الشرفية
المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق الدكتورة إيلزة
المخصص لابن سيده ، طبع بولاق
مروج الذهب للمسعودى ، طبع السعادة
مسند أحمد ، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر
معجم البلدان ، طبع الخانجى
المفضليات ، طبع دار المعارف
مقاييس اللغة ، بتحقيق عبد السلام هارون
الميسر والقداح ، لابن قتيبة ، طبع السلفية
النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، دار الكتب
نشوة الارتياح ، للزبيدى ، تحقيق لندبرج
النهاية لابن الأثير ، طبع العثمانية
نهاية الأرب ، للنويرى ، طبع دار الكتب .

استدراك

ص ٦٦ س ٨ صواب العبارة : « إنَّ رسولَ رسولِ الله » .